جان بودريارد

إدغار موران

عنف العالم

ترجمة
عزيز توما

تقديم
ابراهيم محمود



عنف العالم

- **عنف العالم**
- إبراهيم محمود
- الطبعة الأولى 2005

- الناشـــر: **دار الحـــوار للنشـــر والتوزيـــع**

سوريا ـــ اللاذقية ـــ ص.ب: 1018

هاتف وفاكس: 422339 41 963

البريد الإلكتروني: **soleman@scs-net.org**

إبراهيم محمود

عنـف العالـم

دار الحوار

الفهرس

جماليات العنف

كـــل شـــيء يـــبدو كمـــا لو أن ثورة كوبرنيكية من نوع مخـــتلف، وعلـــى مستوى متمايز هذه المرة، قد فاجأت إنسان اليوم، كما لو أن العالم اليوم يشكل النقيض الكلي المحض لما كـــان حتى الحافة الأخيرة للقرن المنصرم، كما لو أن الأنظمة والدســـاتي والسســـاتيم المعرفية قد زحزحت عن مواقعها وتم تشـــفيرها بصـــورة مفاجئة، كما لو أن (أن) هذه باتت عفريتاً كونياً فجّر قمقمه الكوكبي، وفتح صندوق باندور المرعب في كل الجهات، كما لو أن الذي حدث في التاريخ الذي نشهده في عـــنفه الكوني، قد جاء من خارج التاريخ. وكأن التاريخ الذي شهدناه حتى سنوات قريبة لم يكن التاريخ المدوّن حقيقةً، بل ربما هامشه أو ما دونه.

يدخـــل البشـــر مـــن كل الأجناس وفي كل مكان في حلبة العـــنف، بل يتحولون إلى حلبات عنف شاؤوا ذلك أم أبوا، لا اختيار هنا، فالعنف أصبح سيد الأحكام على صعد شتى،ولأول مـــرة يـــتوحد العـــالم عبر العنف،. هكذا يبرز المتن وكأن لا هامش له، إذ العنف يوحّد بين الشكل والمضمون.

هذه المشهدية في صيغتها البانورامية قد تبد وحديثاً عن فلم خيالي معين، لقد ولى عصر / عهد الأفلام الخيالية (على الأقل فـــي الوقت الراهن)، "فرانكشتاين" أصبح خردة هنا، المشهدية فـــي ســـيمائها الكونية وهي لما تزل تتنامى وتتفعّل بأكثر من طـــريقة، وأغلبيتـــنا داخلهـــا، هي حقيقة واقعية،بحيث ابتلعت الخـــيال وقواه الحية، وعمّت الكون، ثمة أحادية عنف، أحادية واقـــع شـــمولي لـــيس إلا، كل خيال هو جنحة واقعية تودي بصاحبه. وكأن المطلوب من الوقع إثبات مشروعيته.

الأكـــثر من هذا، وما يؤكد ما أوردناه هنا،هو أن الحديث عما يجري شمل الجميع بتلذذ غامض مريب، إن عولمة العنف والتعبير عن العنف تتبدى بجلاء مشع.

كـــأن ثمـــة لوثة (جينية) تجذرت في الداخل، وبدأ الجميع، وكأنهم، ضد الجميع، العنف هو الذي يقودهم ويستشري فيهم، وسرعة الزمن لافتة من خلال تداعي الأحداث، ولكن ما يقوله ظاهـــر الأحـــداث، فـــالأحداث المفعّلة لها مسارات ومغذيات أخرى.

البدء هو 11 سبتمبر (أيلول) من العام 2001، هذا هو مطلع الألفية الثالثة يفاجيء الجميع بحدث بدا كارثياً ليس لأن الذين كانوا ضحاياه هم أكثر عدداً، ولا لأن الدمار الحاصل كان أكثر ترويعاً من سواه من حيث المساحة والبنية، ولا لأن الذين قاموا بالفعل المذكور (حتى الآن هم غير معروفين تماماً، نقول، أقول تماماً، لأن فور وقوع الحدث تنصّل منه الجميع غالباً وأدانوا مرتكبيه، ولاحقاً برزت سيناريوهات، وربما هي المرة الأولى، وفق الطريقة المذكورة، تمضي فترة زمنية على حدث مأسوي حقاً،دون تسمية رموزه)، وإنما لأن الحدث تميز بفرادة مشهد يته، ولأن الذين كانوا ضحاياه، ما كان بإمكان أي كان ،توقع ذلك حتى خيالياً، ولأن المكان كان معتبراً شبيه(الأرض الحرام)، ولأن الذين مثلوا المكان المضروب والضحايا والرمز المخترق اعتبروا خارج كل توقع في أن يضربوا:

1- إن انهيار برجين توأمين، لم يكن بفعل زلزال أرضي، وإنما كان بفعل زلزال جوي أفقي، لقد كان هناك مذبحة تمت في الفضاء (الجو) في ما يشبه طرفة عين، ذاك الانهيار جاء في غفلة من التاريخ المحروس، والجغرافيا المراقبة، كان عملاً كابوسياً خارج إرادة السيطرة الأمريكية، وانهيارهما لم يتم في صمت، كان مكشوفاً متلفزاً، مصوراً بدقة (هكذا تقول الصور)، شوهد من قبل الملايين بالعين المجردة، كان ثمة معجزة مزدوجة اخترقت عنان السماء ولكنها كمعجزة معكوسة

أيضـــاً سويت بالأرض، لقد استسلمت الهندسة الفضائية لقوى تخريـــب غاية في التقانة الخفية حتى الآن، قوى عمّقت الخيال ومعقوليته المغيّبة.

2- لا ينفصل البرجان بوصفهما شاهدين على فذاذة العمرة الكونـــية والســـوبرمانية الحـــيوية في ميسمها الأمريكي، عن الســـلطة الرمـــزية للمجـــال الحيوي، عن المكان الذي جري تطويبه بوصفه النمط الجغرافي الجليل (التيبولوجيا المتفردة) والموقع الكوكبي المعظم (التوبولوجيا المنتقاة)، ثمة إحداثيات مواقع، ومواقع اعتبرت عصية على النخر، هكذا تلتقي العمارة المكانية بالإمارة الزمانية.

3- لكـــن مـــن هم الذين تم استهدافهم، وكيف؟ هنا يمكن الـــتوقف طويلاً. فلأول مرة في التاريخ الأمريكي، ومنذ أكثر مـــن مائتي عام يتم توجيه ضربة فضائية موجعة إلى الرأس

capكما عبّر دريدا عن ذلك، ضربة لا تخل بمفهوم التوازن الاســـتراتيجي مـــن الداخل، بل تكشف عن وهم التوازن،عن البنية الحكائية الموجهة لهذا / ذاك التوازن المموه، لأول مرة يكتشـــف الأمريكان أن"رامبو" لا يمكن الرهان عليه إلى الأبد، لن يكون النموذج العصي على المواجهة وفقدان التوازن، على الأقل منذ الحرب العالمية الثانية وفي أمكنة مختلفة من العالم، حيـــث كـــان "رامبو" المحارب الرسولي، والطاغية الرسولي، والمملـــي الأوامر الرسولي في الجهات الأربع، وهاهو خلاف ذلك، وأين؟ في عقر داره، ومن عدو وهمي، (وهو ليس كذلك

بالتأكيد)، متخيّل، شبحي، لم تتحدد هويته بدقة حتى الآن، لكن الضــربة وجّهــت إلى الرأس، ونشوة الغفلة الرسولية لم تعد موجــودة، والرأس cap يفصح عن كثير من الدلالات، الرأس رئاســة، والرئاســة لسان حال سلطة، والحرب لأول مرة يتم إعلانهــا بشكل غامض ومن الداخل وليس عبر الحدود، ومن قبل رجال (من هم ؟) تم ابتكارهم، اختلاقهم، وعدة وجّهت (من أيــن؟) تعتبر في غاية التقانة، كل ذلك بدا كالصدمة الكهربائية التي شملت الكيان الأمريكي في عمومه، وانتشر الأثر عالمياً. وأن يكون انتشار الأثر بسبب التضامن أو المسايرة أو التبعية العمــياء أو لوجود بروتوكولات معينة فهذا لا يؤخر ولا يقدم شــيئاً، إذ المؤكــد ذكــره هو أن ثمة حدثاً غير مألوف واجه الأغلبية الساحقة، وحتى الآن مدبرو الحدث غير معروفين كما ينبغــي، ربمــا كمــا هو لسان حال الكثير الكثير من رموز السياسات الأمريكية في تدبير شؤون وتقرير مصائر الآخرين بطــرق مــتحركة، هو أن ثمة حدثاً لا يمكن غض النظر عن نوعيته (فرادته) على صعيد ما يمكن أن يحدث في إثره، وهذا مــالا يمكن تجاهله، فحدث بمثل الذي رأيناه: بدماره الحاصل وضــحاياه وطريقة التنفيذ والرعب الزلزالي المنتشر جغرافياً ونفســياً وفــي دولة كانت تتحرك بمنطق الدولة الاستثناء قوةً وجــبروتاً، لابــد أن يكون التالي على صعيد رد الفعل، على صــعيد الرأس المختل توازنه ــ ربما ــ متجاوزاً لكل توقع، أو غــير مألوف، إذ الحرب التي بدأت من وعلى الداخل وفي

نقطة مكثفة الرموز والدلالات، وترجمت خارجياً حيث لخّصت أكثر من ثقافة معمول بها، عمت الجهات الأربع.

لــيس هــنا من هو مستثنى من (إشعاعات) هذه الحرب. فلأقــل: هذه هي النتيجة الأولى المترتبة على الحدث المتفرد، هكذا جرى رسم الحدث في بقعة نائية(عنا) ولأول مرة، وفي مساحة محدودة، كما لو أنه حرب حقيقية، بل هي كذلك (هذه المــرة كان الخطر الخارجي المؤفلم بوصفه مستهدفاً الولايات المــتحدة دون ســائر العــالم خطــراً محسوساً)، كما لو أنه (هــرمجدون) فعلــي، فــي مكان كان بعيداً عن كل مؤثرات الحــروب العالمية الطراز، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تتدخل، تكون فعلاً بمثابة "رامبو" المطلوب تدخله في الوقــت المناســب، أوفي الوقت المخطط له للتدخل، بطريقة رســولية إنقاذيــة لهــا مواصفاتها الخاصة، وهذه المرة تأتي الحــرب كما هو "رامبو" المتخيل، المختلق، الرسولي المميز، الكلــي القدرة، العالمي الطراز، فجأة ودفعة واحدة من الداخل الأمريكي، حيث الرأس (العالمي) مضروب بقوة، والجميع هنا (شــاؤوا ذلــك أم أبوا) معنيون به، بموجب حلف، عقد موقع عليه باسم الجميع ورغم أنف الأغلبية.

الكل باتوا داخل حمى وطيس الحرب المتفردة، هكذا يبتكر الحــدث المتفرد حربه الكوكبية، والأغلبية هم كومبارس فيها، ومعنــيون وملاحقــون ومعرضــون للاســتجواب وللتوقيف والتعنيف في كل مكان.

بـــات الجمـــيع ممثلـــي الحدث، محاربين، معلقي أخبار، محللـــيها، مروّجـــي دعايـــات، أبطالهـــا على طريقتهم، كتبة مقـــالات، وفنانين في السياق، ومستمرئين الحديث فيما جرى ويجري حتى وهم داخل حرب الحدث هنا وهناك، هكذا تتبدى جماليات العنف عالمياً، جماليات الحدث في صيغته الجمعية.

والعالم الذي نشهد تحركاته وإعلامياته ونشاطاته وحوادثه مـــنذ بـــدء الحـــدث عالم محارب بامتياز على الجبهات كافة، محـــارب تـــتم محاربته بالمقابل، حتى بالنسبة للذين خططوا للحـــدث مهمـــا كانـــت جنسياتهم وشهاداتهم ولغاتهم ومستوى ونوعـــية مواهـــبهم هم محاربون ومواجهون بعنف الحرب، وبشـــكل لـــم يسبق له مثيل، لا مثيل هنا، لأن الحدث تم كما يظهـــر، ليكون في مستوى صانعة الحدث، أو المجال الحيوي لـــه، أو الـــرهان المعقود عليه، والدولة التي تمخّضت عنه أو كانـــت مسرحه الحي و المفاجيء، كل شيء تم الإعداد له في غفلة عن أهله، المسرح الطولاني والصاعد، والنظارة الذين تم إحضـــارهم أو تعييـــنهم دون علم منهم وبدء العرض، والذين مثلوا وهم منزوعو الأسماء وأخرجوا العرض، وكتبوا النص الحركـــي، وكل هؤلاء مجازون غير معروفين كما ينبغي في حـــده الأدنـــى. وهذه هي النتيجة الثانية المترتبة على الحدث، وبـــات الجمـــيع معنيين بدفع الفاتورة وتحمل المسؤولية ليس بالمعـــنى القضائي المألوف وإنما انطلاقاً من ملابسات الحدث التي لم تتحدد ومن الوقائع الغيبية والنافذة المفعول إلى إشعار

آخر، كون المسؤولية رغم مرور سنوات ثلاث لم تتحدد، إنما هي قابلة للتعقيد والتغيير في بنودها التي لما تزل تتشكل، وهي النتيجة الثالثة المترتبة على الحدث.

جمالــيات العــنف هذه استثنائية كما ذكرت، ولهذا صار بإمكان اللاوعي إبراز مكبوته أكثر من أي وقت مضى، أعني أن مـــا يجـــري الآن هـــو مـــن تبعات جماليات العنف حيث تداعياتها تتنوع هنا وهناك.

مرآة الحدث

لا يــتم فهــم الحــدث إلا فـــي سلسلة مفارقاته الجغرافية والسياســية والاجتماعية والثقافية لكن شريطة البقاء في حيّز حيثياته، إذ جمهرة الإعلاميات الكبرى والتصورات في منحاها ومــرعاها الأيديولوجييــن قد تلعبان دوراً كبيراً في تشويه أو تمويــه الحدث بحيث يكون هو ولا يكون هو، وهذا يضاعف مــن حقــيقة مـــا جعله الحدث (معرّفاً به) ومن خلال ما هو مرسوم ومؤسّس بأكثر من معنى عنه.

في إطار التاريخ الأمريكي المعاصر ومن خلال مقوماته، ربمـــا كان الحدث المأتي عليه، بمثابة نهاية الفلسفة الذرائعية الأمريكــية بوصــفها الحافة التي يجب أن تتوقف عندها وإلا فلســوف يكــون هناك انهيار من نوع آخر، سقوط في هاوية التاريخ، وما هو جار الآن يفصح عن هذه الهاوية وهي تتسع (هــنا رورتـــي يـــبزّديوي، كما سنرى، المرآوي يتفوق على البراغماتيكي المفرط واقعيةً).

بالرجوع إلى الوراء، يمكن تتبع مفهوم الحدث الحاصل في البنية التركيبية للتاريخ الأمريكي.

كبقية التواريخ لأغلبية شعوب الأرض ودولها، لا يوجد ما يسمى بـ (التاريخ الأمريكي)، هذا التاريخ هو فلتة تاريخ، صنعة لاحقة على تاريخ هو الأصل، ولكنه ـ قطعاً ـ ليس التاريخ الأمريكي، إنما تاريخ المايا أو الأزتك، أو الهنود الحمر، أو الهنود، هو تاريخ لم يقم على أنقاض تاريخ هؤلاء والموغل في القدم، إنما بعد تحويل الشعب التاريخي والجغرافي العتيد والعريق دون تسميته، بعد محاولة التمكن منه من النواحي كافة (قراءة أعمال إيف تيريو ترينا جوانب حية من ذلك، وتأمل أيضاً الأفلام المخصصة في كيفية استئصال شأفتهم، وليس فلم "الرقص مع الذئاب" هو المثال الوحيد، وأفلام الكاوبوي هي النموذج الحي والمضاد لما كان الهنود يفكرون به وفيه، هي أفلام أمريكية بامتياز)، كان لابد من إيجاد المنعطفات الكبرى في التاريخ لتحويله وإظهاره التاريخ الذي لا سابق له، هكذا ودفعة واحدة وكما في مفهوم الطفرة / النقلة الداروينية السبنسرية، يتبدى تاريخ الهنود الحمر التاريخ المعرّض للاختراق والانسحاق والخسف ومن خلال ممثليه ومجسديه، ويتم التدوين لمرحلة تاريخية جديدة، سمّها بدء عصر النهضة الأوروبية، أوالد خول في التاريخ الوسيط، أو انعطافاً في التاريخ أوروبياً، بحيث يبرز الغرب قرين الليل دلالياً مهوى الشمس، والشرق الدال باسمه على

الحضـــور الشمســـي منزوع الشروق أو الحركة، وذلك عبر الغـــزو الأوروبي للعالم القديم (هكذا تشير التسمية بالذات إلى كارثية الحدث، إلى أن العالم الذي كان وعرّف به مجرد عالم فقــط وليس جغرافيا بشرية، جغرافيا شعوب وأثنيات أكثر من كل الجغرافيا الأوروبية، هو مجرد عالم، عالم ماذا؟ لا إضافة هــنا، الصفة هي التي تفي بالغرض، وما تبقّى ـ وهو المهم والأهــم ـ طيّ العبارة العبّارة، يغدو القديم من القدم منزوع الصلاحية مستوجباً الملاء والامتلاء والسكنى.

يتــبدى الاسم الصاعد تاريخياً الاسم المنتظر لقارة بأكملها جرّدت من جنسيتها، الاسم (أمريكو) ومنذ عام 1492، أو منذ نهاية القرن الخامس عشر بالتسمية التاريخية الأوروبية وليس الهــندية أو غــيرها، شخص واحد، اسباني يسقط اسمه على القــارة تلــك، ويــتحول العالم القديم دفعة واحدة، كما لو أنها شــهادة الميلاد من العدم، إلى العالم الجديد، ليتوافق الاسم مع شــرف التســمية المعمّــدة، ويغدوا لاكتشاف الجغرافي إتلافاً للجغرافــيا والتاريخ الأهليين أو المحليين، وكان المفترض أن يكــون المكتشف الأوروبي لاحقاً وطارئاً هو أصل الاكتشاف هــنا لا العكــس، أن يكون كولومبس العالم الجديد لعالم قديم، ممــثلاً لعالم يبحث عن الضوء في عالم يفيض به، هو حدث لازلــنا مأخوذيــن بــه، أو نحتفــي بــه، عندما نتحدث عن الاكتشافات الجغرافية دون التدقيق في المفهوم ورعب المعنى أو شرنقة التسمية، يكون كولومبس نموذج الجغرافي المغامر،

حيث كنا نقرأ عنه في المنهاج المدرسي، وهو يقودنا إلى عالم ما وراء الظلمات، وتتوفر أنفاسنا وهو يتقدم من العالم (القديم) وكأنــه عــالم الأشــباح والكائنات الممسوخة، مجرداً عن أي هوىً، نتابع مغامرات كولومبس الرسولية في عالم الهمج.

كــأن دخول (المكتشف) هو إدخال العالم غيرا لمسمى في الــتاريخ، وقــد تأخر تعميده الأيديولوجي، ويتحقق ذلك بجعل الأســماء والأمكنة ملحقة بالاسم الجديد وبشكل فظائعي، وكأن هــناك شــعائر مطلوبة ممارستها قروناً من الزمن، أعني من الإبادة، كما يعلمنا بذلك، وبحرفة الجغرافي البصير والمؤرخ المتنور على طريقته"تزفيتان تودوروف" في كتابه الأثير (فتح أمريكا: مسألة الآخر)!

الحــدث هو حدث اكتشاف، اكتشاف المكتشف، المكتشف الذي يتطلب منه تقديم أوراق اعتماده للذي جعله موضوعاً له دون تسميته إلا بوصفه الملحق باللا مسمى، بما هو مجازي، جغرافــي غامض، فيكون الحدث في حد ذاته جديراً بالمساءلة والاســتنطاق، طالما الهندي المنزوع الاسم، بكل رحابة قارته وعــراقة اسمها يغدو موضوع اكتشاف وكأنه بدعة، أو لقيط تاريخــي على قارعة الجغرافيا البشرية، ويتجلى الآخر فعلاً، وهو الأوروبي المفوّض بالتمثيل والحديث عما اكتشفه.

هذا ليس لا معقولاً، ربما هو لا معقول العقل وقد تخلى عن اسمه، ولكنه العقل الذي ينقسم على نفسه ويحيل المرفوض فيه (هــنا يكون الآخر الهندي بكل زخمه وثقافته وجغرافيته) إلى

المـــادة المنصـــاعة له، حيـــث المعرفة لا تكون قوة وسلطة وإنشاء، وإنما ما يجعلها ويبقيها هكذا، أعني وجود القوة التي تحـــتكر اســـمها بـــإطلاق وبامتـــياز ذاتي، وتعقلن مفهومها، وتحصـــن علامـــتها الفارقـــة، وتبتكر مفرداتها الخاصة بها، وتؤســـس ســـلطتها ولهـــا ومعتقدها وطقوسها وأصول نسكها وطـــريقة حـــياتها وحـــتى موتها وتقواها في عالم هو محمية خاصة باسمها،وخارجها يكون السد يم.

لا جـــدوى من التدقيق في الحدث وماهيته (مصداقيته)، لقد تم تدوين الحدث بوصفه حدثاُ، وعلى هذا الأساس يمكن متابعة مـــا يحـــدث أو يـــتراءى بصـــور شتى في المحيط الكوني / الكوكبـــي، هنا لم يعد بالإمكان التوقف عند كتاب مشاكس،ولو أنـــه صـــوت مجلجـــل، وأعنـــي بـــه (الخديعة المرعبة) أو (الفضيحة) لـــ "تييري ميسان" وهو ينفي الحدث كحقيقة بذكاء مـــتفرد، ولكـــن الحدث الذي تم التخطيط له، الذي كان يتوقع أحداثـــاً هـــي عابرة لا تشكل عبئاً على المخطط له مسبقاً ـــ ربمـــاـــ صار له مفعوله وأدبياته، كما يعلم القاصي والداني، ففـــي الجهات الأربع يتم تناول الحدث والانشغال به باعتباره الحـــدث الاستثنائي الذي يعني الجميع، ولم يعد هناك بالإمكان الرجوع إلى الوراء.

أمـــريكا القـــارة، أمـــريكا العـــالم الجديد، تشكلت مخلفات (نجومية / كوكبية) ولكن قدوماً من أوروبا: الاكتشاف الغزو، الســـيطرة، فـــرادة القـــوة الكوكبـــية هذه المرة، أمريكا الاسم

المســتعمر مــن ذاتــه وبذاتــه، والمنقلب على تاريخ صنعه وأوجــده، والمتحرر منه، والمختلف كلياً عن بقية الأسماء في منحاها القومي، أو الأثني، فهي التي تشكلت حصيلة أوروبية، ومــن ثــم بمــزيد مــن الضحايا من الداخل (الهنود الحمر) والخــارج، كأجســاد للعمل وللسخرة وللمتعة (الزنوج)، حيث طردت مستعمريها وبقي المستعمرون (يا لها من مفارقة؟!)، إذ أن طرد الأسبان والفرنسيين والإنكليز وغيرهم، لم يكن بمثابة إعــلان استقلال شعب أو دولة أو أرض، إنما تحويل الغازي إلى مستعمرو المستعمر إلى أصلاني وممثل للأصلاني, ليس الهنود هم الذين تحرروا ولا أرضهم هي التي حملت أسماءهم، ولا دولــتهم رجعت وهي ممثّلة من قبلهم، لقد أمسوا في الحد الأقصــى وهــم فــي حدهم الأدنى في حضورهم الجغرافي، العــددي، الرمــزي، أمريكيين بشرف الانتماء طبعاً والولاء قسراً، حيث برزت أمريكا اسماً لقارة، وربما، وكما ومألوف، الاســم الأعظم لدولة عظمى، تتجاوزا لقارة هذه التي تتلخص فيها وبها غالباً، وأعني: الولايات المتحدة الأمريكية (هنا يمكن الاستئناس بكتاب "*منير العكش*": حق التضحية بالآخر "أميركا والإبادات الجماعية")، باتت أمريكا الواقع والحقيقة المفروضة علــى الواقــع، حيــث خرج الأوروبيون مدحورين، وبقيت خلاصــتهم الأصــل العــائم تاريخياً، والأصل المتمرد على الأصــل، تمرد الابن على الأب، بوصف الابن مقرر مصير الأب هنا.

هـذا استمرار للحـدث الـذي تم تفعيله وتسجيله، الاسم الشخصـي المـتفرد الذي أطلق على قارة، واعتلى التاريخ، ليغدو الاسم: القومية، قومية ما بعد القومية، قومية الدولة التي تعـيش فوضى القوميات في العمق. أليست أمريكا هي القارة الوحـيدة عالمـياً، والدولة الوحيدة كونياً في ارتباطها بنسب مفارق لها؟

لا تقـوم أمريكا على بنية قومية، إنها ما تزال تسعى إلى التشـكل، ولهـذا فهـي تسعى بالمقابل إلى تقويض كل البنى القومـية ذات الحضـور فـي التاريخ، عبر انتقامات متتالية ومختلفة، وعلى طريقتها:

1- ثمـة انـتقام من الأب المتعدد القوميات (في أوروبا)، فهـي ـ بالمعنى الفرويدي تضمر الكراهية للأب التليد، وفي الوقت نفسه تحاول الحلول محله، كما في سعيها المحموم إلى تمثـيل أوروبـا قاطبة، عبر إعادة تفكيكها لجعلها اللا قومية، وتراكيبها لجعلها ملحقة بها بوصفها القومية المولفة.

2- إن قتل الأب القومي لا يضع حداً لحقد الابن، الذي لا يخفـي كراهـية الأب، لأنـه لا يستطيع التخلص من كابوس البـنوّة، لأن الأب تسـمية منيعة عليه، على الأقل من منظور نسبي، فثمة هجنة طاغية هنا.

3- الابن المتكون من مجموعة آباء، يوجد الحجج والذرائع المخـتلفة وفـي كل وقت، لمواجهة الجميع، وضرب الجميع بالجميع. فأمريكا مفتوحة لأي كان، وبوسع أي كان أن يكون

أو يصبح أمريكياً، حيث الأمريكي لا ينخرط في حيّز. قومية معيـــنة، بقـــدر مـــا يشعر أنه مشارك أو مساهم فيها، ويمكنه الانصـــهار فـــيها بسهولة، غير أن الذي يبقى هنا هو الصفة العنفية المميز لهذا الانتماء من حيث صراع الهويات وتنازعها حـــول أي مـــنها يمكـــن للانتماء أن يحقق أماناً أكثر، فالآباء حاضـــرون في الذاكرة الجمعية المولفة والحديثة العهد، ولهذا يبرز العنف في طابعه الأمريكي المشرعن متمايزاً.

وفي ضوء ما تقدم يكون الحدث المتشكل أمريكياً، مشحوناً بالعنف الذي يشمل الجميع. ولكنه العنف الذي كان منذ القدم، العـــنف الـــذي يؤكـــد نسابته الماورائية كما تعلمنا ذلك ونحن صـــغار، ونحـــن علـــى مقاعد الدراسة، هو الذي دشن تاريخ الإنسان من لحظة خروجه من الجنة، وصار علامة فارقة له، عبر مفهوم (العدو)، هذا المفهوم الذي امتزج بالثقافات، وتسلل إلـــى قلـــب الحضـــارات، وتداخل مع أشكال القيم الاجتماعية والـــتربوية والجمالـــية، فهو ليس وليد عصرنا الحديث، ليس حديـــث العهد، دون أن يعني تبريراً للعنف الممأسس والمدار والمحتكر أمريكيا هنا.

إلا أنه لا يبقى كما كان، مثلما أن القيم المتداولة والمسواقة والمعـــزّزة فلسفياً وأدبياً تختلف في أداءاتها الوظيفية والغائية، ثمـــة تداخـــلات وتفاوتات، ولكنه موجود، وهو الأكثر تنوعاً وتسارع وتيرة اليوم.

يمكن هنا الحديث عن الحدث كما تجلى في وجوه عدة له، ولكـــن دون إمكانـــية استقصائه وسبر قاعه، فهو عصي على الانكشـــاف والبداهة ولغة المنطق، حيث يمتزج بالرغبة ولكنه يتجاوزها، ويقيم في العقل ولكنه ليس رهينتها، ويتمفصل في المقومـــات الثقافـــية ولكنه ليس عيانياً ليتحدد كمياً ولا ذهنياً لـــيحاط بـــه مفهومـــياً، إنه يغتني ويتفرع ويتأصل دون إقامة مواقعـــية حيث يفيض على كل معنى، والمفصح عن كل ذلك هوا لحدث نفسه في طابع المفاجأة المميز له، في حركية (الما لا نعلمه باستمرار في مواقف مختلف في كل آن وحين)، ولعل كـــثافة المعلومـــات والتصـــورات والأفكـــار والطـــروحات والفرضـــيات وتسارع نبض العصر الذي وضع الجميع رهن الإقامـــة الجـــبرية بشكل ما حتى وهم متباعدون عن بعضهم بعضاً جغرافياً وألسنياً وثقافياً ومن خلال مفردة اكتسبت طابعاً كونـــياً هي (الإرهاب)، هي التي تؤكد هذا المنحى، لقد حولت المفـــردة هذه، إنسان اليوم إلى كائن سياسي، ولكن ليس لأنه يـــريد الاشتغال بالسياسة، وإنما لأن السياسة هي التي تستهلكه على أكثر من صعيد.

إن كل ما قيل هذا الذي تعجز ملايين الصفحات عن حمله، ضاعف من حدة العنف، ومن بروز العنف، وكأن الحديث عما جـــرى، والتنقيـــب في حركية الحدث بأبعاده المختلفة يسرّبان المزيد من العنف إلى الداخل، كما يبقي الخارج مضخة كونية للعنف، وينوع في المخاوف المرتبطة بالإرهاب وأفقه.

يـبدو اللامنظور، وهو طي اللامدرك أو يعيش في موازاة اللاشعور،قيمة مرآوية بامتياز، حيث الصور متعددة والسطوح المرآوية لا تحصى، والمواقع الثقافية التي ترصد ما يجري لا تحـيط بالـتحديات الواقعة (وهنا يمكن التوقف عند الأمريكي "ريتشـارد رورتـي" صاحب: الإنسان المرآوي أو المنعكس، كتابه المميز الذي يفصح عن أن العقل المميز اليوم بمفاهيمه لم يعـد قـادراً علـى ملاحقـة المسـتجدات، فثمة الأنا وحدية solipsisme تشكل علامة فارقة تهدد العقل بما هو كارثي إن لـم يسع إلى المزيد من التحرر من مفاهيمه وأدواته المعتمدة، وهـي محاولة ليست جديدة بل وجدت منذ القدم، حيث مقولة (الإنسـان فـي أزمة وكيف يمكنه تجاوزها)، شغلت البشرية باسـتمرار، وواجهت الإنسان أكثر نظراً للمخاطر المحدقة به مـنذ نصـف قرن ونيّف، كما تعلمنا أدبيات المدرسة النقدية وغيرها).

ولعـل التقانة التي ضاعفت من قوى الإنسان، بحيث بات بالإمكـان الحديـث عنه من خلالها بأنه السوبرمان الذي كان بطـل الحكايـات الخيالية وهو ينتقل من مكان لآخر بسهولة فائقـة، ويحصّـل معلوماته هكذا، هي التي أوجدت كوارثها وحكاياتها إذ يمكن الحديث عن الإنسان المذرور بالمقابل.

ولكن حديثاً من النوع هذا لا يبعدنا (وعليه ألا يبعدنا) عن الاخـتلافات والصـراعات القيمية وكيفية تجسيدها أو التعبير عـنها ومن هم ممثلوها ومن هم ضحاياها في عالم اليوم، كما

يعلمـــنا الحدث ذاته، وأمريكا انطلاقاً من خاصية القوة والنفوذ تبدت مسرح قيم متعارضة وباتت الدولة التي لا تلتزم بمفهوم الدولـــة بالمعـــنى الحـــدودي وما تعنيه قداسة القيم الحدودية ومشـــروعيتها، ثمـــة نـــزع للقداســـة عـــن العـــالم هنا le desechantemet du monde كمـــا يقـــال، حيث لا حدود محصـــنة فـــي عالم اليوم، تفرض القدسية نفسها أو تتنحى أو تتغيـــب من خلال القوة الممثلة على أرض الواقع غالباً، ولعل الإرهـــاب بكامل قيافته المولفة ورهبة المدلولات فيه يعبر عن ذلك، إذ يمكن أن يكون صفة لأي كان في أي مكان في العالم وفـــي غفلة منه، ويتم البحث عنه، أو يقبض عليه دون إعلام منه.

ليس هذا هو الواقع

أن تكون أمريكا (كما نلفظها هكذا) هي ممثلة الحدث، وفي الواجهـــة الإعلامية، لا يعني أنها تمثل الواجهة بكل ما تعنيه هـــذه المفـــردة من ظاهرانية وسطحية المعنى، بالعكس،على الحـــدث الـــذي يربطـــنا بالواجهة تلك على طريقة (هذه هي أمـــريكا)، ومن خلال ما جرى ويجري حتى الآن، أن يبعدنا عـــن الظاهـــري في الأشياء أو الموضوعات التي يتم تناولها ومناقشـــتها وعنونتها بما يخدم ثقافة الواجهة وهدفية الواجهة وقـــيم الواجهة الخفية حيث الاستدراج إلى الداخل هو المخطط له، كون الكم الهائل من الإعلاميات والمبتكرات اللفظية لغالبية

مثقفينا ومنظرينا في هذا المجال وعبر المنابر المتلفزة خصوصاً والمؤلفات التي باتت في سعي محموم إلى إثبات جدارتها العصرية، وهي تتناول الحدث بوجوهه المختلفة ومن منظور تآمري فقط، يطيح بخاصية الحدث نفسه، ويصعّد في الأزمة الحاصلة، وهي التي تتجاوز كل الطرق التقليدية في مقاربة المستجدات وحيثياتها.

يمكن أن أتحدث كالكثيرين مثلي من المعنيين أصلاً بما هو فكري وثقافي عام، وكحيوان أنفوميديا سي (إعلامي سياسي)، عن أمريكا بوصفها راعية الإرهاب، ودولة الكاوبوي، وأصل البلاء العالمي، والشر المحض بتعبير أحدهم.

هذه ليست أمريكا. لو كان الأمر كذلك لما غدت في الواقع بمثابة (الأنا الأعلى) لغالبية الأوروبيين، لما بقيت كما هي، لما استطاعت الصمود. فدولة تستطيع المزج بين الواقع والخيال وتحيل الخيالي إلى واقعي، وتقرر مصير الواقع بوصفه جنحة خيال، وتغير في المصائر والأفكار كثيراً، تتطلب المزيد من الرؤى ودقة المقاربة إذا رمنا الحقيقة من جوانب مختلفة وانطلاقاً من(الحدث) الأمريكي نفسه.

لقد أصبحت أمريكا واقعاً. إنها الدولة الوحيدة في العالم التي سعت منذ قرون عدة فقط في أن تتشكل وتشكل قوتها على أنقاض دول مستعمرة، هي دولة حديثة العهد، دولة عن ماض لها، وتؤسس لأساطيرها لآثارها في المستقبل خلاف الدول الأخرى، دولة الابن (كما ذكرنا ذلك) التي تسعى

باضـــطراد إلـــى إثـــبات سلطتها وجموح القوة فيها بطريقتها الخاصـــة، إنها خبرة أسلافها من المستعمرين المحنكين الذين أعطوها الاسم وهي التي جذّرته في الواقع،ووضعوا إحداثيات الحداثة ولكنها استثمرتها وعمقتها وسعت إلى ما بعد الحداثة، لا بـــل إن (المابعديـــات) تجذرت فيها أكثر من غيرها، نعم، بالوسع الحديث عنها بوصفها دولة الكاوبوي ولكن الآخرين هم الذين يعتقدونها كذلك ويستمرئون لعبتها، وبوصفها دولة الابن، ولكنه الابن المقاوم للأب والفارض سلطته عليه والمتحكم فيه كثـــيراً إنمـــا دون قتله، فثمة حكمة يعيها الابن ويدركها الأب نفســـه، وهـــو ضرورة كل منهما للآخر، ولأول مرة ــ كما أعـــتقد ــ لا تبدو نظرية فرويد صائبة هنا، حيث الابن حتى وهـــو شب عن الطوق وأصبح رجلاً لا يسمي الأب أباً، إنما يســـتدرجه إلى عالمه دون إضعافه، والأب نفسه مأخوذ بفذاذة الابـــن، وكل ذلك يبقي الابن في حالة فتوة مستمرة ولزمن لا يمكـــن تحديده في العمق، والحدث مميز في هذا المنحى الذي يقودنا إلى عالم الابن الراشد لا الواجهة، الابن الحدث الطليق دون الانبهار بقوته لمعرفته أكثر.

أمـــريكا لم تكن بول كيندي أو فوكوياما أو هنتنغتون، لقد كانـــت وهي أمريكا والت ويتمان ووليم فولكنر واليكس هالي وتونـــي موريسون وبول استر وكين كيسي ونعوم تشومسكي، هي ليست أمريكا "رامبو" فقط، ليست أفلام العنف والغطرسة والاستعلاء، يمكن هنا متابعتها في (الغريزة، وإصلاح سجن،

والإعصـــار، ووداعـــاً أمـــريكا، والقيامة الآن، والرقص مع الذئـــاب.. الـــخ)، كـــل ذلك يكشف عن البعد الثقافي لما نحن بصـــدده، وحتى لا نستحيل مفهوماً واجهاتياً. لنتوقف قليلاً عند مفهوم الحدث كما يتجاوز خاصية السطح أو الواجهة.

لأن الحدث الذي تم، كان مكان حدوثه في موقع أقرب إلى الاستحالة منها إلى الواقع في الوقوع، ولأنه أثار وما زال يثير الكثير من التساؤلات ويستنزف المتخيل نفسه، فإن اللغة تتنوع في تعقيداتها وموضوعاتها، وهذا ما يمكن ملاحظته عند "جاك دريدا" خصوصاً وهو يركز على الحدث.

مـــا الـــذي يتلمســـه فـــيه، كيف هو الحدث événemente. الكيفـــية هنا ليست سؤالاً إنما محاولة مقاربة النوعية الخاصة للحـــدث. تبرز الفلسفة بمثابة المحاولة القصوى للعقل التفكيكي في التأمل والتحليل.

ثمـــة بلـــبلة في الإنشاء الحدثي، ربما تجاوباً افتراضياً مع الموضـــوع نفسه (إن الحدث يكمن قبل كل شيء في ألا أفهم. فهو يتألف من أنني لا أفهم، بمعنى أنني لا أفهم وأنني لا أفهم بشكل أولي، أي حقيقة أنني لا أفهم، أي عدم فهمي) لماذا هذا التعقـــيد فـــي الصياغة؟ أهو تعقيد حقاً؟ (ولكن ولكي أستطيع توضـــيح أن ما حدث هو أي شيء باستثناء كونه مجرداً فكرياً وأن أفـــق عدم المعرفة به هذا أو غياب أفق المعرفة (أي عدم القدرة على استيعابه ومعرفته وعدم القدرة على التعرف عليه وتحديـــده وعـــدم القدرة على تسميته ووصفه والتنبؤ به) يحتّم

علـــي أن أتبحر أكثر في الحديث عنه وأن أتحدث عنه تحديداً بطريقة ملموسة أكثر) كل ذلك من موقع المغايرة، حيث دريدا لا ينســـى التركـــيز علـــى نقطة جوهرية ذات أكثر من إحالة مرجعـــية: دينـــية وسياســـية وأخلاقية، هي في عبارة (الدولة المارقـــة states of concern)، هـــي تســـمية ذات مغزى استعملت كثيراً، وألصقت بـــ (أمريكا)، التي لا يبخل ساستها في استثمار ما هو ديني وحتى طقوسي كما في عبارة (فليبارك الرب أمريكاGod bless America)، كل ذلك يرسم صورة الكارثة المستقبلية، فما حدث هو في حقيقة أمره أكثر من حدث يجـــري فـــي مكـــان لا يحتفى به كقيمة، وفي موقع لا تعطى الأهمية التي أعطيت لموقعه (فالصدمة هي إذن نتاج المستقبل ممـــا هـــو أشـــد سوء وهي ليست مجرد نتاج اعتداء مضى وانـــتهى...الـــخ) ويمكن المضي مطوّلاً في صياغات من هذا الـــنوع (حيث يمكن مراجعة ذلك في كتابه: ما الذي في حدث 11ســـبتمبر؟ أو في مقاله: ما هي "الدولة المارقة؟")، فنحن ــ وخوفاً من الماضي ــ نحرص على المستقبل، إنه الخوف من أن يولـــدا لحدث أحداثاً تفوق الخيال، لآن المعمورة باتت ثقيلة بمـــا علـــيها من تقانة تهدد بالدمار الشامل، وقد ضاقت على أهلـــيها، وليس الإرهاب الذي بات من كثرة الاستعمال مألوفاً، والـــذي يهـــدد الجمـــيع، ولا براءة ذمة لأحد هنا، يفصح عن الضخ العجيب لمشاهد العنف هنا وهناك.

الحـــدث لصـــيق الحدوث، لصيق الفعل الذي يتواصل في إحـــداث أثـــره، لكنه الحدث الذي مازال ينمو ويكوّن مفهومه كحـــدث (بالمعنى البيولوجي)، وفي الوقت نفسه يتنامى وسط الجمـــيع وكأنــــه يعنيهم جميعاً، ولهذا لا إمكانية للإحاطة به، لمعـــرفة مــــا سيكون مآلات، كونه يتحرك صوب المستقبل، والأحـــداث التي جرت في السنوات الثلاث الأخيرة حتى الآن تكــــاد تكـــون الإطلالة الأولى لذيول الحدث لقانون دفعه، وأن نكون مستقبليين بإفراط، فمن فرط خوفنا من مهددات الحدث. أهي مبالغة؟

لســـنا بصــــدد نهاية العالم Apocalypse حتى نندفع في الحديث بوازع ديني مدّثرين بالرؤيا الكونية للحدث ولما يمكن أن يحدث على أعقابه، فتتملكنا المشاعر والاستلهامات مما لم نتوقعه بعد، وإلا فإن الحدث هو حقاً نهاية التاريخ هذه المرة، وأن الصـــدمة الحدثـــية ســـوف تعم العالم بنوع من الانفجار الميـــتانووي الكارثـــي، ولســـوف نشهد في هذه قيامة المسيح الدجـــال، إنما يعنينا الحدث في مفعّلاته الكوكبية أو العالمية، حيث لم يعد بإمكان أي كان أن ينجو من لوثة تهمة تلصق به، وهـــو الـــبعد الكوني للحدث، لم تعد الحدود موجودة كسيادات متـــباعدة ومـــتمايزة، بقدر ما صارت الأعلام علامات فارقة لعبور الحدود وليس لتجنبها، فحتى عهد قريب، كان بالإمكان الـــتواري عـــن الأنظار والاختباء في مكان قصيّ، مهما كان الجـــرم، أما اليوم فإن مقولة الإرهاب وحدت العالم أو صيّرته

بيـــن فكـــي كماشة، وهذه من المفارقات الكبرى واللافتة في التاريخ، مقولة الإرهابي تخترق الحدودويات لها ممثلوها حيث لا يحصـــون عدداً، والإرهاب هنا ليس رهين الخوف فقط، أو بعث الرعب، وإنما يتضمن مسحة من السحر وإغراء الاسم، الإرهابـــي هـــو مرهوب الجانب ولكنه من نوع ساحر، إنه لا ينفر وإنما يستقطب، فهو ثنائي المعنى هنا، والبشر يتوحدون رغـــم أنهـــم يتـــنافرون من الداخل ولكن المصير الكوني، أو الخوف على المصير البشري هو الذي يوحدهم مشاعرياً.

هـــنا تكمن البلبلة ويتبدى التبلبل بسبب حداثة الحدث، جدته الطارئـــة، حيث يصعب الجزم بمصداقية أي مقولة أو تفسير لإبداء شعور براحة معينة، لأن الحدث مازال يفعّل سرياليته، أعني واقعيته، إذ لم يعد العمل بمنظومة تفكيرية قائمة على ما هـــو عيانـــي وتسلسلي منطقي ممكناً، والواقع لم يعدا لمسمى واقعاً كما يرتئيه عقلنا المؤطر بمعارفه المتوارثة أو المتداولة، الحـــدث لا يمكـــن مقاربته هكذا، والمفاجأة الصاعقة هي التي تشي بذلك، وهذا يستدعي الخروج إلى عالم الحدث بالمفردات والتصـــورات الحافـــة بـــه، والبنية الرمزية التي يقوم عليها وملابســـاته تلـــك التي تتجذر في المتخيل، أتذكر ما جاء قبل عقدين من الزمن على لسان "ماكرتومبسون" في رواية (البابا الأخضـــر) للغواتيمالي "استورياس" (أنا ماكرتومبسون.. البابا الأخضر..نفوذي خارج الزمن وفي الزمن..خارج الواقع وفي الواقع..)، هو ذاك الواقع غير المعاش الذي يحاصر المألوف،

فلابــد من التحول إذاً، حيث العنف ينوّع مفاهيمه ومشهدياته، ويهــدد عالمــاً بأكمله بموت تاريخ لابد من نعيه رمزياً، هو تــاريخ العقــل الذي نتناقش به، وننطلق من تعريفاته التليدة، حيــث تاريخ جديد نشهده، إذ أن العنف الذي نعايشه وفي ظل الحــدث الحاصل في مستواه، وفي عالم العولمة، حيث صار بالإمكــان الحديــث عن الحداثة وما بعد الحداثة، (عن البعدية هــذه) باعتبارها تتملكنا بمؤثراتها، رغم أننا مازلنا ننحت في مفاهيم وتصورات تخص العقل في سياقه ما قبل الحداثي، لسنا فــي الحالة بصدد حرق المراحل، وإنما في معمعان المفاهيم الطارئــة التــي تســتوجب التكــيف معها طالما أنها تداهمنا ولامناص من التوجه نحوها، وهنا، وأكثر من أي وقت، تبدو تاريخانــية historicisme عبد الله العروي في محلها، إذ لم يعد وارداً الحديث في الخصوصية والتمايز، ولابد من الارتقاء إلى ثقافة الحدث، وتقبّل كلما أوجده هذا المفهوم الاستثنائي من تصورات تدشن قرننا الجديد.

وأنــوّه بالأهمــية الفائقــة القــيمة وقوة الاستبصار لمقال "امــبرتوإيكو" الإيطالــي المــتعدد المواهــب. إنما أثاره في (ســيناريوهات قيامية للحرب الشاملة) والمنشور مترجما في ملحق (نوافذ) الصادر عن صحيفة (المستقبل) اللبنانية 18 ــ1 ــ 2001، والعنوان نفسه قياماتي، ولكن ثمة رؤية بانورامية مكــثفة للحــدث، ملخــص المقال هو هذا الصراع المستفحل بطابعه الجديد، والعنف الي يولده عالمياً بين الألسن والشعوب

والأعـــراق والأديان والمذاهب، فالحدث أعاد حمى الدين إلى الأذهان، وبات الدين المميز بين الشعوب وللتفريق الحضاري بين الأمم، وبات أي انفجار في مكان، كفيلاً بتحول المكان كله إلى مستودع بارود، حيث توجيه التهمة كاف لتجييش المشاعر والأفكار والمواجهات الدامية، وهذا ما أكده الحدث، وما يهددنا أكثر في المستقبل الدين الذي عسكر في النفوس والرؤوس هنا وهـــناك (مــا الذي سنفعله بالمقابل في بلداننا؟ إذا ما استفحل الـــنزاع وانهارت ناطحتا سحاب أو ثلاث أخريات، أو كنيسة القديـــس بطرس ذاتها،ننطلق في تعقي المسلمين، ضرب من لـــيلك القديـــس بارتولوميو أو ساعات العصر الصقلية: فيلقى القـــبض على كل ذي شاربين، أو على كل بشرة غير ناصعة البـــياض، ويذبح. سيتعلق الأمر بإبادة الملايين ولكن الجموع ســـتتولى الأمـــر دون إزعاج القوات المسلحة الأخطر من كل ذلك حين يتعلق الصراع الفالقي الحاسم والفجائعي بالتصفيات وفق التصنيفات المذهبية والعرقية وفي بلدان تذخر بها، وليس بين دول متوا جهة (الغرب (وأميركا بالخصوص) أسس قوته وازدهـــاره علـــى اســـتقبال أناس من كل الأعراق ومن كل الألوان. ماذا سيبقى من ذلك "المرجل الصاهر" في حال نشوب مواجهة شاملة؟).

إنـــه الـــرهان الأكبر على الإنسان كمصير نهائي وكمعنى أخـــير، وهـــو تحدّ يواجهه الإنسان الكوني والذي يتحرك في منحى تذر ير الإنسان من الجهات كافة، رغم أن القوميات مع

ألديـــان والمذاهب التحدي العكسي والذي يتطلب من الإنسان الـــيوم رؤيـــة المختلفات بوصفها الانطلاقة نحو إنسان جديد وعـــالم جديد، وفي الوقت الذي بات الحديث عن الهندسة الو راثـــية وفضـــائيات المعـــرفة والتكنترونيات لافتاً النظر إلى الانتصار الكبير الذي تحقق كونياً، ولكنه الانتصار الذي ينفجر بالانمحـــاق الكونـــي، وعـــبر مفهـــوم كراهـــية الأجانـــب Xenophobie.

ولعـــل التركـــيز على ما هو قياماتي لازال يمتح من بقايا الذاكـــرة الجمعـــية التي تقود البشرية إلى نهاية محتومة لبداية معلومـــة ماورائياً، خصوصاً مع بداية كل قرن جديد أو ألفية جديدة، ولكن عالم اليوم هو عالم جامح حقاً كما يقول "انطوني جيدنز" ومن خلال عنوان كتابه والذي يفتتحه هكذا ("إن العالم علـــى عجـــل، وإنـــه ليقـــترب من نهايته". هكذا تكلم رئيس الأساقفة، وولفستان، في خطبة ألقاها في مدينة يورك في العام 1014)، فالماضي يهدد المستقبل، ولكنه في الوقت الراهن لا يهـــدده من خلال معتقداته المتوارثة، وإنما من العنف المدعّم بكل ما من شأنه تعريض كوكبنا لدمار ساحق ماحق.

ولعـــل مـــا يجـــري بذريعـــة محاربة الإرهاب، ومواجهة الإرهـــاب، وباسم الإرهاب، ورداً على الإرهاب، من حوادث قتل واغتيالات وتفجيرات وتصفيات دموية وأعمال انتحارية.. الخ، يعطي الصورة الأسوأ عن العولمة Mondialisation أو glopalisation، ويحـــيل هـــذه إلى عالم يصعب الإقامة فيه

والاســتقرار الآمن، وببث وإيجاد كل أشكال الهمجية أو ردود الأفعــال المفاجــئة والأصــوليات القلاعية التي تمارس تفتيتاً مــروّعاً للعــالم الــذي يطنب في مدح انتصاراته العقلية، في محاولة للحفاظ عليه.

ومــا نشــهده ومن خلال القوى التي تمارس تقييمات باسم الحفــاظ على سلامة كوكبنا وجنسنا البشري، وكيفية اختزال القــيم البشرية هذه، حيث المعتبرون ضعفاء باتوا في مواجهة الاحتمال الأخير واللجوء إليه وهو التعبير عن أنفسهم ولو أن ذلك يتم بصورة مأسوية لافتة، لا ينتظرون بها رد فعل الآخر أو مفعّل الإرهاب ومحدده أو جوابه، إذ التعبير ذاك يتم بأعمال استشهادية أو انتحارية.

كــل ذلــك يضــع القوى المتنفذة قبل غيرها في مواجهة مفاهــيمها العقلية وكيفية تقييم الآخرين: أمماً وشعوباً وأفراداً، خشــية الانفجار الكبير، وهذه استحالة، فالحرب الشاملة، كما يقول إيكو في نهاية مقاله، في عصر العولمة مستحيلة (أي أنها قد تكون هزيمة الجميع). هذه الــ "قد" تفتح أكثر من ثغرة في الجــدار الــذي يحمي من هبوب ريح الحرب الكونية، وتفشّي العنف هنا وهناك.

تحت قبة العنف العالمي

لا يمكــن لأي كان أن يقول أنه يعيش بمعزل عما يجري كونــياً. فالعولمــة بتصوراتها ومشهدياتها المتلفزة سواء بدت عولمــة الــبربرية كما يقال أو الوحشية أو قانون الأقوى أو

توحـــيد العـــالم بصـــيغ متفاوتة، لا تعفي أحداً من همّ التفكير بتداعـــياتها، ويعني هذا أن مفرداتها المتعلقة بالحداثة وما بعد الحداثة والدلالات المسوَّاقة عبرها والعلامات الفارقة للإنسان الاســتهلاكي، ولأمـــم وشعوب تخشى على نفسها من التفكك وفقـــدان الهويـــة.. هي مفردات لا يمكن التغاضي عنه، لأنها معاشـــة ولو بدرجات متفاوتة، ونحن من بين هؤلاء، إذ لسنا خـــارج مؤثراتها وإنما نشهد تأثيرها، وهذا يتطلب المزيد من الـــيقظة، حيث النظر إلى الآخر بوصفه الإمبريالي والوحشي والنقـــيض الذي لا يمكن التعايش معه، وحيث الواقع يدحض ذلـــك، يعـــيق التكيف مع الذات قبل كل شيء. ولعل من بين الأمـــثلة الأكـــثر دلالة هو ما طرحه "ادوارد سعيد" سواء في كـــتابه (الاستشراق) أو (الثقافة والامبريالية) وهو يرسم عوالم متعارضة لا متعاضدة، أو متضادة لا متداخلة، وخصوصاً في كـــتابه الثانـــي وهـــو يحوّل الأدب (والنوع الروائي أكثر من غـــيره) إلـــى شهادات شخصية وتاريخية: غربية وامبريالية واستعمارية لإدانة الغرب نفسه، والولايات المتحدة في السياق، ولكـــنه لا ينسى ثمئذ التركيز على وحدة العالم، لا بل الرهان على ذاك الآخر المندد به وهو ينطلق من مفاهيمه ويعلّم بها، فالآخر هنا اختلاق ذاتي كثيراً.

إن الممـــتع إنسانياً هو التجاوب مع صوت "كافافيس" قدماً باتجاه المستقبل:

عليكم السفر إلى أبعد البعيد،

أبعد من الأشجار التي تسجنكم..
أبعد من الحاضر الذي لا يزال يكبّلكم...
أبعد من الغد الذي أخذ يقترب
وعندما تظنّون أنكم وصلتم
اعرفوا كيف تجدون دروباً جديدة...

عنف العالم

وهـنا يمكنـنا الـتوقف عـند كـتاب "جـان بودريـار" و"ادغـارموران": *عـنف العالم* Laviolance du monde والـذي أصـدره معهد العالم العربي في باريس، ونشرته دار Felin عام 2003.

ولعـل العنوان الأكثر دلالة هو العنف في العالم، أو عنف العالمـي، إذ أن عنف العالم يميّع المفهوم ويضعنا في مواجهة ميتافـيزيقا شائهة لا علاقة لها بما يجري، وكأن الذي يجري مـن عنف لا يمكن تحديد قواه والذين يغذونه ويعتمدونه، لكن ربما يكون (عنف العالم) كعنوان محاولة بحث في المضمون أو ما يليه.

المؤلفان لهما باع طويل في الكتابة ومتقاربان عمراً، وهما أقـرب إلى المدرسة النقدية (مدرسة فرانكفورت) أكثر من أي اتجـاه آخر، وامتداد لها، حيث يصنفان في حيز كتاب ما بعد الحداثـة، بآرائهما الجريئة، إنهما باختصار مفكران متفردان بمواقفهمـا إلى درجة التطرف وهم يحللان جملة مفاهيم تقوم

عليها خصوصيات كل مجتمع، ساعيين إلى تقويضها بغية الأفضل، وفي فرنسا بالذات، وهما فرنسيان، ولهما أعمال كثيرة، وترجمات قليلة جداً إلى العربية، ويبقى ادغار موران أكثر محظوظية، فعلى سبيل المثال ترجمت له وزارة الثقافة السورية (مقدمات للخروج من القرن العشرين) منذ أكثر من عشر سنوات، و(روح الزمان) في جزئين، قبل قرابة عقد زمني، وأما بودريار فهو معروف على نطاق واسع في الغرب، وقليلة جدا هي ترجماته إلى العربية، إذ بالكاد تتعدى مقالات عدة، ولعل اللغة التي يعتمدها في صياغة أفكاره والتعبير عن مواقفه بجرأة وبنوع من العدمية الباءة والفذة، ربما يصعّبان كثيراً مهمة المترجم والرغبة في التعامل معه، خصوصاً لحظة التفكير في العالم الفكري الذي يمثله وطبيعة طروحاته، وما يمكن أن تحدثه من ردود أفعال ومدى إقبال على قراءته عربياً، إذا راعينا المفاهيم وبنيتها الذهنية ونيتشوية المتخيل فيها، خلاف ما هو عليه موران في كتاباته التي لا تخفي محرّكاتها النفسية (الفرويدية) والسوسيوثقافية ولكنها لا تتوقف عندها، بقدر ما تمارس نقداً ثقافياً عاماً للمجتمع.

وهذا لا يعني نوعاً من المقارنة بينهما، فلكل منهما عالمه المميز وقراؤه كذلك، رغم تلاقيهما ما بعد حداثياً، وليس حديثهما عن العنف في العالم، سوى التعبير الأمثل عن الهموم المشتركة رغم الاختلاف في الكتابة.

وأعــتقد أن أهمــية الكــتاب هذا (والمحدود حجماً ولكنه المكــثف بمضــمونه الفكــري، من خلال مادتيه الرئيستين، والمدخــل، والمداخلــة والحــوار) تتلخص في راهنيته، ليس بمعنى زمنيته المحدودة أو حدثيته، وإنما بالقيمة المستتبثة والدا عمة له ومن الداخل، وما نحن فيه يضاعف الأهمية المذكورة، فهو كتاب من أجل كل من يسعى إلى مقاربة هذا الذي يسمى عنفاً أو(العنف) أو يريد أن يعرف موقعه ولو بصورة تقريبية، وفــي الوقــت الراهن،حيــث العنف يشغلنا جميعا، مهما كان موقفنا منهً...

والطابع المختلف للكتاب هو الذي يشدنا إليه بوصفنا معنيين بالحدث الذي توقفنا عنده سابقاً، ولا يتم فهم الذات إلا بالمزيد مــن فهم المسمى بالآخر (الآخر الذي هو أنا بالمقابل، والآخر الــذي أتخــيله، والآخــر الذي يواجهني، وقد أكونه، والآخر الواقعي، ولكن كما أعتقده...الخ).

لقد بذل صديقي المترجم "عزيز توما" جهداً كبيراً في إيجاد المقابل العربي للنص الفرنسي، حيث عايشته في عمله الأثير هــذا (دون أن أقيّمه، فهذا من شأن القارئ، إن موقفي يتعلق بمحاولته في التكيف مع النص الأجنبي وكيفية نقله إلى العربية لضــرورة الموضوع والحدث معاً(لا يمكن لأي كان أن يكون في الكتابة أو في التعبير عن موقف ما أن يكون هو ذاته على صعيد الأنا، وأن يكون الآخر بوصفه المدرك الفلسفي المحاط

بـــه من كل جانب، وربما الكتاب يعطينا فكرة من النوع هذا، ولابد أن يكون هكذا).

وقـــد سعيت في مقدمتي هذه ألا أعلق على الكتاب إلا في نقـــاط معيـــنة، فهو للقارئ، والذي يعنيني هو الحدث وكيفية مقاربـــته تاريخياً، كما أن تعليقاتي لاحقاً هي من باب توسيع المفاهـــيم ومرافقة الآخر ربما بما يشبه كتابة النص الموازي، ولعـــل العنوانيـــن اللذيـــن اخترتهما لمادتيَ: جماليات العنف، ومقامات العنف، لم يوضعا عبثاً، في (جماليات العنف) تلمست فـــي هـــذا العـــنوان، الكثير مما تلمسته من قوى باعثة على الكـــتابة، أو ما يحدث من حولنا راهناً بخصوص العنف، من تصورات ومدركات جديدة لا يمكن تجاهلها، فثمة ما يغري في العنف، من حيث ممارسته بالقول والفعل، فهو مكوَن داخلي لا يـــنكر حضـــوره، أما في (مقامات العنف) فهو عنوان اخترته تعبيراً عن بنية أو محتوى ما اعتقدته العلامات الفارقة للكتاب الذي نحن بصدده (هنا أكون قارئاً من بين قراء، وهذا أقصى مـــا أتمـــنى أن أكونـــه، لكن انطلاقاً من المفهوم الدقيق لكلمة "قارئ" الذي يسعى إلى تفهم موضوعه بعمق قدر المستطاع)، فثمة بعد تأليفي على هامش العمل المترجم، ولنا (أنا عزيز) أكـــثر مـــن تجـــربة مشـــتركة، من خلال كتاب "جاك دريدا" (أركيولوجـــيا التوهم) الصادر عن مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2004 ــ وكتابه الآخر (أحادية لغة الآخر) الصادر عن دار كتابات، في بيروت، 2004 كذلك.

ولعـل أقصـى مـا نبتغيه معاً هو أن يحرك هذا الكتاب المشـترك، تسـاؤلات في ضوء الحدث السالف الذكر، وهو حدث يقلقنا بإجاباته بالتأكيد.

ابراهيم محمود ـ القامشلي ـ الكورنيش

بصدد عنف العالم

بقلم: ماتي كابال

إن الابــتعاد عــن مشـــاعر الحقد والحقد المضاد، يعني التموضع فيما وراء الخير والشر، ومبتدعي الشوائب والصور المصغرة، ومقاربة منطق جمالية اللعبة المدمرة للمرآة بين الـــ ((أنـــا)) و الــــ ((آخر))، ومساءلة العالم في أحزانه...، تلك الأسئلة من بين الكثير من أسئلة أخرى وقد أردنا طرحها دون مواربـــة في أيام الخميس في معهد العالم العربي، إنما بطريقة مؤثـــرة ومتمـــيزة مـــع جان بودريار Baudrillard وادغار

موران Morin، بعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول 2001 المرعبة في نيويورك.

لكل واحد منهما حسب طريقته له أفكار تتناقض بشدة مع الأفكـــار المبتسرة لأشباه الاختصاصيين أو أشخاص طرحوا أنفســـهم كمفكريـــن عن الإسلام، عن الاسلاموية والـــ ((أمر الإرهابي)).

نصـــوص جـــان بودريار وادغار موران تدعونا للتفكير وتجعلـــنا ننكب على دراسة أركيولوجيا العصور القديمة، وفك رمـــوز الـــبقايا اللاواعية والحقول المنتشرة والخصبة في ما وراء الأمم والحدود. لذا فان فكرهما ليس فكراً ظرفياً بل هو فكر زمني معقد، متحرك وشامل.

ماتي كابال

Maati Kabal

عنف العالم

تأليف: جان بودريارد

الموضوع هو عنف العالمي، وأيضاً أحداث الحادي عشر من أيلول، وسأبدأ بالبرجين التوأمين Twin Twers ومعمار هما، لأن اعتداءات الحادي عشر من أيلول تتعلق أيضا بفن العمارة architect. لقد كان البرجان صرحين من أروع صروح نيويورك، دمرا وانهار معهما ضرب من فن عمارة، كذلك كل منظومة قيم غربية، ونظام العالم. ومن المجدي

الشـــروع بتحلـــيل تاريخـــي ومعماري للبرجين لبلوغ الدلالة الرمزية لانهيارهما.

وفـــي بدايـــة الأمر، لماذا البرجان؟ ولماذا برجا مركز التجارة العالي World Trade Center

لقـــد اكتفـــت جميع أبنية مانهاتن الشاهقة أن تتواجه في صـــيغة عمودية تنافسية، حيث نتجت عنها بانوراما معمارية، علـــى صورة النظام الرأسمالي، وغابة هرمية كانت صورتها الشـــهيرة ترتســـم عند وصول المرء من البحر. هذه الصورة تغـــيرت عام 1973، مع بناء مركز التجارة العالمي WTC. لقـــد انتقلـــت صـــورة النظام من المسلة والهرم إلى الخريطة القادحة والى الرسم البياني الإحصائي، وهذه الترسيمة البيانية graphisme المعمارية تجسد نظاما لم يعد تنافسيا، بل رقميا أو حســـابيا حيـــث اختفى التنافس لصالح الشبكات والاحتكار. يصـــل ارتفاع متوازي السطوح التام إلى 400 م، على قاعدة مـــربعة، أوان مســـتطرقة، متوازنة تماما وعمياء ــ قيل أن الإرهـــاب أعمى إنما كانت الأبراج أيضاً كذلك، أعمدة مؤلفة مـــن كـــتلة حجرية monolithe تطل على الخارج وتخضع لتجهيز اصطناعي. إن حقيقة وجود برجين لا تعني نهاية كل مرجعية أصيلة. ولو كان هناك برج واحد، فان الاحتكار قد لا يتجســـد تماماً، الوحيد هو مضاعفة العلامة التي تضع حداً في الواقع لما تشير إليه.

ثمـــة سحر خاص لهذا التكرار. البرجان الشاهقان يدللان مـــع ذلــك إلى كبح جماح العمودية verticalite. ليس لهما الصنف نفسه أسوة بباقي الأبنية، يشرفان على بعضهما الواحد والآخـــر فـــي تناظر تام. كذلك لقد كانت أبنية مركز روكفلر Rockefeller Center تســـتجلي واجهاتهـــا الزجاجـــية والفولاذيـــة وسط مرآوية لا محدودة للمدينة. أما الأبراج، فلم تعــد لهـــا واجهة ولا وجه، في الوقت الذي اختفت فيه بلاغة العموديـــة واختفـــت بلاغـــة المرآة. لم يعد هناك سوى علبة ســـوداء، متوالـــية مغلقة على الرقم اثنان كما لو أن المعمار، على صورة النظام، لم يعد يقوم إلا بالاستنساخ أو يعتمد شيفرة وراثية ثابتة.

نـــيويورك هي المدينة الوحيدة في العالم يتعين عليها أن تعرض هكذا، خلال تاريخها، بدقة عالية، الشكل الراهن للنظام وكل انقلاباته. ينبغي إذا الافتراض بان انهيار الأبراج ــ حدث فريد من نوعه في تاريخ المدن الحديثة ــ يجسد نهاية درامية، وباختصـــار اخـــتفاء في آن واحد لهذا النمط المعماري ولهذا الـــنظام العالمـــي الـــذي يجسده هذا النمط. هذان البرجان في قالـــبهما الإعلامـــي المصـــرفي المالي الرقمي الخالص كانا الالدمـــاغ بطـــريقة ما، لهذا فقد استهدف الإرهابيون الدماغ، العصب الحساس للمنظومة.

يمـــر عـــنف العالم أيضا من خلال المعمار، بالتالي فان الرفض العنيف لهذه العولمة يمر كذلك من خلال تقويض هذا

الفن المعماري. وبعبارات تتعلق بهذه الفاجعة الجماعية، يمكن القول بأن رعب الضحايا، بالنسبة لأربع آلاف قضوا في هذين البرجيـن لا ينفصل عن رعب العيش فيهما ــ رعب العيش والعمـل فـي هذه التوابيت الحجرية المصنوعة من الاسمنت والفولاذ.

هذه الوحوش المعمارية العملاقة، كما هو مركز بوبورغ Beaubourg، مارسـت دائما ــ تماماً مثل النماذج المذهلة للتكنولوجـيا الحديثة عامة ــ سحراً غامضاً، إحساساً متناقضاً مـن الجاذبية والنفور، وبالتالي، في مكان ما، رغبة خفية في رؤيـتها وهـي تختفي. في حالة البرجين التوأمين، ثمة شيء خـاص يضـاف إليهما هو : تناظرهما وتؤميتهما. بلا شك، هـناك في هذا الاستنساخ وفي هذا التناظر التام سمة جمالية، إنما أيضا من ضرب من جناية كاملة ضد الشكل، ضد قضية تـتعلق بالشـكل ربما تؤدي، اثر عنف ارتدادي، إلى محاولة تحطيم هذا التناظر، وإعادة اللاتناظر، وبالتالي إلى الغرابة.

لقد راعى هدمهما لا تناظر الأبراج: هجوم مزدوج خلال بضـع دقائق. ترقب بين الاصطدامين. بعد الاصطدام الأول، كـان يمكـن توقع اصطدام آخر. الاصطدام الثاني هو الوحيد الـذي يشـير إلى العمل الإرهابي. عند الهبوط الاضطراري لطائرة بوينغ، في كوين Queen، بعد شهر، انتظرت شاشات التلفزيون، والتقطت البث (على الأقل في فرنسا) خلال ربع ساعة تقريباً، بانتظار هبوط ثان محتمل مباشرة. هبوط بما أنه

لـــم يـــتم، لهذا لم يكن بالا مكان معرفة فيما إذا وقع حادث أو اعتداء.

إن انهيار الأبراج يمثل الحدث الرمزي الأكبر. تخيل أن هـــذه الأبراج لم تسقط أو أن أحد البرجين تهاوى: التأثير لن يكـــون ذاتـــه علـــى الإطلاق. البرهان الدامغ لهشاشة القوة العالمـــية لن يكون نفسه. فالأبراج التي كانت رمز هذه القوة مازالت تجسدها في نهايتها الكارثية، التي تشبه الانتحار. حين تـــراءت وهي تتهاوى بذاتها، كان ثمة انطباع وكأنها تنتحر، رداً على انتحار الطائرات المنتحرة.

هل تحطم البرجان أم انهاراً؟ في الواقع، البرجان يشكلان في نفس الوقت موضوعاً مادياً، معمارياً، وموضوعـــاً رمزياً (رمـــز القـــوة المالـــية والليبرالية العالمية). الجسم المعماري تحطـــم، غـــير أن الموضوع الرمزي هو الذي كان مستهدفا وأريـــد تدمـــيره. والاعتقاد الحائر أن التدمير المادي أدى إلى التدمـــير الرمـــزي. لكن في الواقع لا أحد، حتى الإرهابيين أنفســـهم، لـــم يتوقعوا الانهيار الكامل للأبراج. في الحقيقة إن انهيارهما الرمزي هو الذي أدى إلى انهيارها المادي، وليس العكـــس. كمـــا لو أن القوة التي كان تحمل هذه الأبراج فقدت فجـــأة كل طاقتها وكل رونقها، كما لو أن هذه القوة المتكبرة رزحت فجأة تحت وطأة قوة أكبر وكأنها أرادت دائما أن تكون النموذج الوحيد في العالم.

هكـــذا فقد انهارت الأبراج ماديا في هذه المرة وبأكملها بعـــد أن تعبـــت لأن تكون هذا الرمز الثقيل جداً. لقد تحطمت حواملهـــا الفولاذية وانهارت عمودياً، بلا قوة، على مرأى من انذهال العالم بأكمله.

إن الانهيار الرمزي حصل إذن عبر ضرب من مؤامرة غـــير مـــتوقعة ــ كمـــا لـــو إن النظام بأكمله، بفعل هشاشته الداخلـــية، قد أصبح على محك تصفيته الخاصة، بالتالي بات عرضـــة لتصـــفية إرهابـــية. لهذا فمن المنطقي والحتمي إن التصـــعيد فـــي قـــوة القوة يثير إرادة تحطيمها، لكن من جهة أخرى بات مساهماً في تحطيمها الخاص.

تشـــهد الأفلام ــ الكوارث على هذه الفانتازما، وتشارك عبر الصورة والتأثيرات الخاصة، لكن الجاذبية التي تمارسها لهي علامة انتقال إلى الفعل القريب جداً ــ أي نفي كل نظام، بمـــا فـــيه النفـــي الداخلي الذي يقترب بفعل قوته من الإتقان والجبروت.

قـــيل أن الله نفسه لا يستطيع أن يعلن الحرب على نفسه، إنما بلى!. حسناً، لو أن الغرب في موقع الله (موقع الجبروت الإلهـــي والشرعية الأخلاقية المطلقة)، لأصبح انتحارياً وأعلن الحرب على نفسه.

إلـــى درجـــة يمكن الذهاب بعيداً والقول بأن الإرهابيين نجحـــوا، حتى في فشلهم، في تحقيق ما يتجاوز آمالهم، وهم يخفقون في تصويب البيت الأبيض، وينجحون تماما في ضرب

البرجيـــن. حين أخفقوا في استهداف البيت الأبيض White House، بــرروا ذلــك اضــطراراً بأنـــه ليس ذاك الهدف الأساســـي، وأن السلطة السياسية لا قيمة لها تذكر في الواقع، وأن القوة كانت في موضع آخر.

أما مسألة معرفة ما ينبغي إعادة بنائه في مكان البرجين، فبقيت غير محلولة، لأنه ببساطة لا يمكن تصور شيء يضاهي حجــم هــذا الدمار ويستحقه. كان من الصعوبة بمكان تصور انهيارهما، فلا يمكن الحديث عنهما بمقدار الحديث عن الكثير من الأعمال الفنية المعمارية. إن أغلب الأشياء لا تستحق كل هذا الدمار أو التضحية، الوحيدة هي الأعمال ذات النفوذ التي تستحق ذلك، لأن الأمر يتعلق بالكرامة.

هذا العرض ليس مفارقا كما يبدو، بقدر ما يطرح أسئلة أساسية تتعلق بالجانب المعماري: أي أنه لا ينبغي بناء إلا ما هو، بامتياز، جدير بالتحطيم. ادرسوا جميع القضايا باقتضاب تــبعاً لهذا الاستفهام الجذري، وسترون نتيجة ذلك: ليس ثمة من مهيب يصمد أمام هذه الفرضية المتطرفة. وهذا يرتبط بما يجــب أن يكــون عليه الفن المعماري، وبما لم يعبر عنه أبدا المهندســون المعمــاريون: لذا من غير الطبيعي الشروع في التشييد والبناء. لابد من الحفاظ على الطابع غير المألوف لهذا المشــروع، الطابع الغريب والإشكالي، حيث عذره الوحيد هو انه يسعى إلى طمس ذاته ويجعل من نفسه لا مرئياً.

كـــل شــــيء في مبتداه. كل شيء يبدو مصرفاً على نحو مباشـــر، وســـط تصادم النقائض. ولو أخفينا هذه اللحظة من الانذهـــال، الإعجاب ــ اللاأخلاقي بلا شك، حيث يجد الحدس المغالي نفسه أمام الحدث مترافقا عبر أبدية الصورة ـــ، وإذا غافلـــنا هذه اللحظة نفقد كل إمكانية الفهم. وإذا جاءت الفكرة الأولـــى كالتالي: هذا مرعب وغير مقبول، حينئذ تتلاشى حدة الصدمة ووقعها في خضم الاعتبارات السياسية والأخلاقية. إن كـــل الخطابـــات تبعدنا حتما عن الحدث ولم يعد بوسعنا أبدا الاقتراب منه، ولا حتى من الانفجار الكبير Bing Bang أو من الخطيئة الأصلية.

أمام حدث فريد كهذا، لابد والحالة هذه من رد فعل فريد، مباشـــر وعبثـــي. رد فعل يستخدم بطريقة ما الطاقة الكامنة للحـــدث ــ فكل ما سيتبعه، بما فيه الحرب، ليس إلا شكلاً من أشـــكال التميـــيع والضعف المتصاعد. من هنا جاءت صعوبة العـــدول عـــن التعلـــيق بشكل مباشر: أي كما لو أننا نطالب الإرهابييـــن أنفســـهم أن يستأ نفوا عملهم ببطء، وبين أياديهم المفتاح وطريقة استعماله.

بدايـــة، الحـــدث هـــنا. الحدث والصورة هما هنا أولاً، تزامنياً، بشكل مبهم. الحدث ــ الصورة. الصورة ــ الحدث. الصورة عادة وفي عالمنا الإعلامي هي هنا في موقع الحدث، تقـــوم مقامه، واستهلاك الصورة يستوفي الحدث بالوكالة. هذه الـــرؤية الاســـتبدالية هـــي الاستراتيجية ذاتها للنبأ ــ أي، في

الواقـــع، تتبع غياب النبأ بكل الوسائل. كل شيء مثل الحرب الراهنة هو تتبع السياسة من خلال وسائل أخرى.

هكذا فإن الحرب الأفغانية ليست حرباً، إنما هي ما تقوله لـنا وســائل الإعلام عنها، وهي ليست إعلاماً على الإطلاق. لهــذا فـــان كــل شيء يتساوى بغيره، اللعبة متساوية. فغياب الإعــلام يقــابل بطـــريقة ما غياب الحرب، من خلال إلغاء متــبادل كالإلغـــاء الذي تحدث عنه برتولد بريخت في كتابه ((*حوارات المبعدين*)).

إذاً، الصـــورة، في النظام الطبيعي لوسائل الإعلام، هي المـــلاذ الخيالي في وجه الحدث، إنها شكل من أشكال الفرار، مؤامرة الحدث. بهذا المعنى، إنها عنف خلق للحدث. بالعكس، فـــي حالـــة مركز التجارة العالمي WTC، ثمة ميوعة تتعلق بالاثنين، بالصورة والحدث. والصورة ذاتها تغدو حدثية. إنها تصـــنع الحـــدث بوصـــفه صورة.. فهي ليست افتراضية ولا واقعية، إنما حدثية. كذلك في حالة حدث استثنائي كهذا، هناك مـــيوعة تتعلق بالواقع والخيال، إذاً، ليس هناك ضياع للواقع، إنمـــا بـــالعكس مـــزيد من الواقع المرتبط بمزيد من الخيال، وبطـــريقة مـــا ثمة صلة بفعل رمزي شامل، تماما مثلما كان يتحدث موس Mauss عن الفعل الاجتماعي الشامل.

في هذه الحالة المعقدة، تصبح الصورة مثل الحدث تماماً غـــير قابلة للتخيل. هذا ما ادعاه، من جهة أخرى، كل العالم وهـــم يـــنظرون إلـــى الأبراج وهي تتهاوى: شيء غير قابل

للتخـــيل! ولهـــذا ليس ثمة تصور ممكن لهذا الحدث. إنه غير قـــابل للتصـــور عبر بعض الخطابات أو التأويلات السياسية والاقتصادية والنفسية. وبوصفه حدثاً محضاً، فانه يتجاوز كل ذلك. وإذا كان من غير الممكن تصوره، فإنه من غير الواقعي خصوصـــاً الـــتحدث عنه ـ إنه في نفس الوقت غير واقعي وواقعـــي بإفراط. فبدلا من إنتاج الخبر أو تعميم خبر يتصف بـــال ((واقعـــي))، فان هذا الإعلام ينتج من اللايقين لا يقينية واســـعة، تماماً لأنه يحطم التتابع الخطي للأحداث ((الواقعية)) والتـــتابع الخطـــي المتواصـــل للصور. وحتى بدلاً من تدفق الأحـــداث السطحية والصور المبتذلة التي نتواصل معها، فإن هـــذا الـــتدفق يشير إلى توقف قطعي للصورة، توقف عنيف للعالم، توقف عنيف في محطات الإعلام.

كذلـــك فإنه ليس ثمة تصور ممكن، ليس ثمة نشر حدث كهـــذا يتعيـــن التحدث عنه بصورة خاصة. إنه حدث مشهدي مذهـــل ومســـتتر فـــي آن واحـــد. فلا نشر، بل ثمة نوع من انحـــراف (كنوع من ظاهرة تصدعية)، من تصفية، من فعالية صـــامتة بحيث هناك محاولة بالتأكيد لا ضعافها وإدراجها في كل التعليقات الشبيهة بالانتقالات المرضية metatases.

فـــي الواقـــع، إن هذا الحدث، بوصفه حدثاً خالصاً، فقد اخـــتفى (كمـــا اختفى أسامة بن لادن!). إنه محكوم بالاختفاء وســـط عمل سياسي وأيديولوجي هائل من التضليل، إنه عمل مأتمـــي، ينبغـــي طمســـه. وينبغـــي طمس كل التبعات عبر

الخطـــاب، كما ينبغي العودة به إلى الوضع الطبيعي للأشياء، حيث كانت الحرب جزءاً منه.

إن انهيار برجي مركز التجارة العالمي WTC شيء لا يمكـــن تصـــوره، غـــير أن ذلك لا يكفي أن نصنع منه حدثاً واقعياً. وإن مزيداً من العنف لا يكفي للانفتاح على الواقع. لأن الواقـــع هو مبدأ، وهذا المبدأ هو الذي تلاشى. الواقع والخيال أمران مبهمان، وجاذبية الاعتداء هي جاذبية الصورة أولا ــ النتائج الابتهاجية والكارثية في آن هي بحد ذاتها خيالية بشدة.

فـــي هذه الحالة إذا، الواقع يضاف إلى الصورة كمكافأة للرعب، كقشعريرة على الأغلب. الأمر ليس فقط مرعباً، إنما أيضـــاً واقعي. فبدلاً من حضور الواقع هنا أولا وإضافة هلع الصـــورة إلـــيه، فإن الصورة هي هنا أولاً، ويضاف إليه هلع الواقـــع. شيء كخيال على الأكثر، خيال يتجاوز الخيال. هكذا كان بالارد Balard (بعد بورغ Borges) يتحدث عن إعادة ابتكار الواقع، كالتصور الأخير المرعب جداً.

هـــذا العنف الإرهابي ليس إذاً بمثابة عودة لألق الواقع، ولا حـــتى عـــودة لألـــق الـــتاريخ، هذا العنف الإرهابي ليس ((واقعـــياً)). إنه الأسوأ بمعنى ما: إنه رمزي. قد يكون العنف بحـــد ذاتـــه سطحياً ومسالماً. الوحيد هو العنف الرمزي الذي يصنع التميز. وفي هذا الحدث الفريد من نوعه، في هذا الفلم الكارثـــي لمنهاتن Manhattan يترابط عنصرا جاذبية ركام

القــرن العشــرين: الســحر الأبيض للسينما والضوء الأسود للإرهاب. بهذا المعنى، الحدث يأتي دائما في المرتبة الأولى، وهو غير متوقع.

هكــذا فــإن حدث نيويورك قد تم تصوره مرات عديدة كسيناريو (البرج الجهنمي...) من قبل هوليود أو من قبل الـــ CIA، لكن أبدا لم يكن تصوره كحدث ممكن، لهذا بقي غير مــتوقع تماماً. السيناريوهات الافتراضية قادرة على أن تستنفذ كل الاحتمالات إنما ليس بوسعها أن تستنفذ أبداً الحدث ذاته. والحـــال أن معظـــم الأشياء، الواقعية منها أو الافتراضية، لا تصـــنع حدثاً. إنها من مرتبة استمرارية القضايا والتأثيرات. الحـــدث، بالمعنى الواقعي، هو من مرتبة الانفصال والقطيعة. بهذا المعنى، كل حدث يستحق هذا الاسم هو إرهابي. إنه شكل من الانتقال إلى الفعل الرمزي، لهذا فانه مصدر جاذبية فريدة، المعادل لجاذب غريب.

قــيل أن أحـــداث الحادي عشر من أيلول كانت تمثل عودة الواقعي reel بشدة في عالم أصبح افتراضياً، من خلال حنين للقيم القديمـــة الحسنة للواقع وللتاريخ حتى التاريخ العنيف، إنما الأمر لا يتعلق بذلك. الأمر لا يتعلق على الإطلاق بهجمة الواقعي، إنما بهجمـــة الرمـــزي، العـــنف الرمـــزي الذي يوصف بالتبادل المستحيل للموت.

هناك فرضيات مختلفة ممكنة حول الإرهاب، حول الفرضية في درجة الصفر لتلك التي اسميها الفرضية السائدة. وباستثناء

هذه الأخيرة فإن هذه الفرضيات تسعى بأكملها إلى منحها معنى تاريخي، سياسي، ديني، نفسي وحتى إلى طمس تميزها.

إن الفرضــية في درجة الصفر تعني إن العمل الإرهابي ليس له أهمية خاصة ولا معنى له وكان عليه أن لا ينوجد. إنه ليس إلا انقلاباً مفاجئاً في السباق العالمي نحو الخير والسعادة، وهــذا يرتــبط بالــرؤية اللاهوتية التي بموجبها لا يغدو الشر إلا وهما.

الفرضــية الثانــية تــتعلق بالانــتحار بيــن المتزمتين، المتطرفيــن لقضية فاسدة، السيكوباتيين (مضطربي الشخصية والعقــل) القتلة seriale killers الذين يتعين إقصاءهم (انظر مــا حدث لهم في غوانتانامو). إنها الأطروحة الأعم لمناورة الإرهابيين أنفسهم عبر قوة ما مؤذية. أطروحة المؤامرة التي تطــال فكــرة مفادهــا أن الإرهاب لا يقوم إلا على استغلال الكراهــية والحقد لكل الشعوب المظلومة لتبرير عنفه وغيظه المدمر. هذه الفكرة موجودة إنما بصورة معكوسة، في محاولة لتبرير الإرهاب كتعبير حقيقي ليأس الشعوب المظلومة في كل أنحــاء العــالم. فرضــية أعلى، بمعنى أنها المحاولة الأخيرة لإعطاء الإرهاب دافعاً موضوعياً وبالتالي مبرراً تاريخياً. لكن إذا أمعنا النظر فيها، نجد أن هذه الأطروحة التي ترتكز على اليأس، هي نفسها يائسة. إنها تدين الإرهاب بوصفه إشارة إلى العجز، إقرار بعجز لا يمثل الشقاء العالمي إلا من أجل تدميره بحركة حاسمة.

من جهة أخرى، إذا كان لابد من إيجاد مبرر للإرهاب أو ظـرف موضـوعي لإمكانية ما، حينئذ فإن الهيمنة على باقي العالم هي بلا شك هيمنة واحدة، إنما أيضا الامتثال المضلل ـ امتثالنا ـ لتكنولوجيا متطورة، للتطور الفائق الذي يصنع من كل وجود فردي موضوعا للامبالاة شاملة، حتى حقداً وانتقالاً مضـاداً، وهذا يحصل في البلدان المتطورة جداً. وربما يكون هناك رفض لهذا الواقع الافتراضي الساحق، لهذا التفوق التقني والاصطناعي المتمثل بالهيمنة والإذلال الخفي. كل ذلك يؤدي إلى رد فعل عنيف وانتقامي، بطريقة ما، على هذا الإفراط في واقع الشيء. في الواقع، اليأس ربما له وجهان.

يمكن أيضاً التعرف في حالة الإرهاب على صيغة عمل سياسي وإرادة خاصة، كصيغة مشروع وغاية مبررة لرفض نظام العالم. إنما بالأحرى من اجل الإعلان عن فشله وشرذمته مـن خـلال الـنظام ذاته. إنها الرواية من بين أخرياتها لـ Arundati Roy، الكاتب الهندي الذي يدين هذه القوة العالمية كمـا يدين الإرهاب كأخوين توأمين، توأمين شيطانيين للنظام يمثل السرطان والإرهاب عدواه.

إذاً، الإرهـاب يعتبر هذه المرة كغطاء متواطئ، كآلية فعـل ارتجاعي feed back، كقوة معارضة ضرورية عملياً وسـط جدل شرير يؤسس الإمبراطورية كآلة جهنمية وحركة أبديـة. وتأتي قوة الشر كمجدد للقوة الإلهية. هنا أيضا يتعلق الأمر بعرض شبه لاهوتي. لدرجة يمكن الاعتقاد أنه فيما إذا

كــان الإرهــاب غــير موجود، لابتكره النظام، ويمكن رؤية بصــمات CIA، كمــا حدث، في اعتداءات نيويورك.. جدل يــائس هو أيضاً، مادام أنه من المفترض أن شيئا ليس بوسعه أن يصــنع الحدث ضد النظام، وأن كل نفي وكل عنف عبارة عــن تواطــؤ مسبق لمجريات الأحداث، المجريات الحتمية للعولمــة. إنه رفض لكل تميز، لكل عنف نوعي لحظة وقوع الحدث ذاته. إنه تجريد ليس فقط لمقاصد الممثلين إنما للرهان نفسه على عملهم. إنها محاكمة وإقصاء للعمل بالنسبة لنتائجه، لتبعاته المسماة بالموضوعية، إنما أبدا لقوته الرمزية الخاصة.

مــن جهــة أخرى يمكن الإطاحة بهذا الجدل والقول بأن الــنظام العالمــي هــو الذي ينسل نفيه الخاص وأن هذه القوة الإرهابــية القائمــة علــى الرفض تستفيد من كل صعود لقوة النظام لتنمو بنفسها عبر نوع من سباق تصعيدي، سباق وفق الوقت قبل اتخاذ القرار.

فــإذا كــان الإرهــاب يدعي أنه يحدث الخلل في النظام العالمي أو الدولة كما أسلفنا سابقاً، فإنه إرهاب عبثي. وبما أن الــنظام العالمي أو الدولة لم ينوجدا على درجة عالية وبحصر المعنى، ومصدر فوضى ولا استقرار، فمن غير الفائدة الرغبة فــي إثارة مزيد من الفوضى واللااستقرار. الخشية تكمن في تعزيز النظام ورقابة الدولة وسط هذه الفوضى الإضافية، مثلما نجد الآن عند اتخاذ إجراءات أمنية جديدة في كل مكان.

لكـــن، هـــل هـــذا هو حلم الإرهابيين؟ في الواقع، إنهم يحلمون بعدو دائم، وإن لم يكن موجوداً، فانه من الصعب جدا إفناءه. مغالاة كهذه لا تبتكر، لكن الإرهاب مبالغ فيه وحصيلته ضرب من جدل مفارق: إذا كانت الدولة موجودة حقاً لأضفت علـــى الإرهاب معنىً سياسياً. وبما أن الإرهاب غير موجود ظاهرياً ــ نتائجه هي تقريباً عدمية وطوباوية ــ فان هذا دليل بـــان الدولـــة غـــير موجودة. إنها طريقة للتوقيع على نهاية السياســـة وانحـــرافاتها، هكذا فان من دون أدنى شك أن نهاية الحرب، نهاية مفهوم الحرب قد تم تجاوزها اليوم بشكل كبير عبر مواجهة غير متكافئة. أين إذاً الرسالة السرية للإرهابيين؟

ثمـــة حكاية تنسب إلى نصر الدين حيث كان يجتاز كل يـــوم الحدود برفقة بغاله المحملة بالأكياس. في كل مرة كان نصـــر الديـــن يفتش، وتفتش معه أكياسه، لكن لم يتم العثور على أي شيء. وهكذا استمر في اجتياز الحدود مع بغاله. بعد زمن طويل سأل أحدهم نصر الدين فيما إذا كان ينقل بضاعة مهربة عبر الحدود. أجاب نصر الدين: ((كنت أهرب البغال...)).

هكـــذا، هـــل يمكن البحث في كل أنواع تفسيرات هذا العمل الإرهابي، وفقا للدين، للشهادة، للانتقام أو للاستراتيجيا السياســـية. ماذا يختبئ هناك؟ ما هو الهدف؟ ما هي البضاعة الحقيقية للمادة المهربة؟

والحـــال أن الرسالة السرية هي ببساطة أشبه بالانتحار، بالمـــبادلة المســـتحيلة للموت، بتحدي النظام من خلال الملكة

الرمــزية للمــوت، بطريقة ما لسلاح المطلق. ويبدو جيداً أن برجــي مركــز الــتجارة العالمــي WTC قد أدركا الرسالة وعكساها بذكاء مباشر، ذكاء عميق وتواطؤ مع الشر.

ما وراء كل هذه الفرضيات، لا أرى في الواقع سوى هذه الفرضية المطلقة ــ اسميها المطلقة بالمعنى الذي يتحدث نيتشه عن الفرضية المطلقة للصيرورة.

(هــناك فرضية في درجة الصفر في العطالة كالفرضية الصــغرى للتــبادل، الفرضــية العلــيا للتاريخ والفرضية المطلقة للصيرورة).

في حالة الإرهاب، تحاول الفرضية المطلقة التفكير به في مــا وراء الممثلين والعنف المشهدي كظهور تناقض راديكالي فــي صلب سيرورة العولمة، في صلب شيء يتعذر نفيه، في تميزه، في هذا الإنجاز الحقيقي، التقني والذهني للعالم، في هذا الــتطور الحتمــي لنظام عالمي منجز، إنجاز للعالم بتأثير قوة حاسمة، سواء رأينا في الإرهاب بكل أشكاله قوة مضادة حيوية نتمكن من القضاء على قوة النظام ــ كقوة عولمة عابثة ــ أو وجدنــا فــيها قــوة موت، أي انقسام، نفي ضد قوة ايجابية لتصالح شامل، لعالم قابل للانصهار بكامله في التبادل. بالتالي قــوة تحــد وفشل ضد ما نسميه المماثلة الشاملة للعالم والتي، بالتأكيد، زادت عنفاً وفتكاً، في الوقت الذي ينمو النظام تدريجيا سـطوة وتماســكاً، مــع وقوع حدث القطيعة حدث البرجين

التوأميـــن Twin Towers الـــذي لم يزيل على الإطلاق هذا التناقض، إنما منحه مباشرة بعداً رمزياً.

الفرضية المطلقة تؤكد أن الإرهاب لا معنى له ولا هدف له ولا يقاس بالنتائج الحقيقية، السياسية أو التاريخية. ولأنه بلا معـــنى، حســب فهمنا، فهذا يعني أنه يصنع الحدث في عالم مشـــبع أكثر فأكثر بالمعنى، بالغائية والفاعلية. تلك هي ذهنية الإرهـــاب واســتراتيجيته المضـــمرة: معنى ذلك أنه لن يتم القضـــاء أبداً على النظام تبعا لعلاقات القوة، ذلك هو المخيال الـــثوري المحتمل الذي يفرضه النظام نفسه والذي لا يدوم إلا لـــيقود باستمرار هؤلاء الذين يهاجمونه في ساحة الواقع التي هـــي دائما ساحته. ما ينبغي فعله هو نقل الصراع إلى الإطار الرمـــزي، حيـــث القـــاعدة هي قاعدة التحدي، قاعدة الردة والمـــزايدة. وهذا يعني أنه ليس بالإمكان الرد على الموت إلا بمـــوت مـــواز أو فائق. إن تحدي النظام من خلال ملكة ليس بوسعه الرد عليها إن لم يكن من خلال موته الخاص وانهياره الخاص. الفرضية الإرهابية، هذا يعني أن النظام نفسه ينتحر رداً علـــى تحـــد هـــائل للموت والانتحار. لأنه لا يمكن للنظام ولا الســـلطة أن يتملصا من الالتزام الرمزي، الالتزام القائم على الرد تحت طائلة فقدان المكانة.

فـــي هذه الحلقة المدوخة للتبادل المستحيل للموت، يغدو موت الإرهابي نقطة في بحر، إنما يثير توقاً، فراغاً، بروزاً عملاقـــاً. حول هذه النقطة المتناهية في الصغر، كل النظام ـــ

نظام الواقعي والقوة ـ يتكثف، يضطرب، يتكاتف ويتلف في فعاليـته الفائقـة. إن خطة النموذج الإرهابي قائمة على إثارة عـنف الواقـع، وهـدم النظام في خضم هذا العنف المتصل بـالواقع. و إن كـل هـذه السخرية من الواقع كذلك العنف المجـيش للسلطة يستهدفان هذا النظام، لأن الأعمال الإرهابية هـي المـرآة المفـرطة الانعكاس لعنف هذا النظام الخاص ونمـوذج عـنف رمزي على حد سواء محظور بالنسبة إليه، العـنف الوحـيد الذي لا يستطيع أن يمارسه: أي عنف موته الخاص. لهذا فان كل القوة المرئية لا يمكنها فعل أي شيء في وجه الموت المتناهي في الصغر إنما الرمزي لبعض الأفراد.

مـا يمكـنه أن يحدث تنشط في النظام العالمي، هو بهذا المعنى، عبارة عن تميزات. والحال أن التميزات ليست سلبية ولا ايجابـية، فهـي لا تشكل خياراً للنظام العالمي، إنها من مقاس آخر، لا تخضع لحكم القيمة، وهي قد تكون الأفضل أو الأسـوأ، منفعـتها الوحيدة هي في تحطيم طوق الشمولية، لا يمكن إدراجها في عمل تاريخي بمجموعه، أصيبت بخيبة أمل إزاء كل فكر وحيد ومهيمن، لكنها فكر ـ مضاد وحيد. هذه التمـيزات تبـتكر لعبتها وقواعدها الخاصة، قواعد اللعبة. ما أقصـده بالتمـيز singularit، مـا هو قائم في نظام التبادل المستحيلl'echange impossible

التمـيز لـيس عنفا بشدة، قد يكون بارعاً، ربما كبراعة تمـيز اللغـات، الفن، الثقافة، الفكر أيضاً، بشرط أن لا يتغير

أمام الحقيقة والواقع. لكن ثمة تميزات أخرى عنيفة، والإرهاب هو واحد منها. فهو تميز لأنه يراهن على الموت الذي هو بلا شك التميز الأخير، التميز الجذري. في حالة الأحداث الإرهابية التي وقعت في نيويورك، كل شيء يراهن على الموت، ليس فقط من خلال هجمة الموت مباشرة ـ في الزمن الواقعي على الشاشات ـ التي تقضي بضربة واحدة على سيمولاكرات simulacres العنف والموت التي تتدفق إلينا يومياً بجرعات تجانسية، إنما عبر غزوة موت أكثر واقعية، رمزية وقربانية، أي الحدث المطلق والعبثي.

الإرهاب هو الفعل الذي يستعيد تميزاً لا يمكن اختزاله في قلب نظام تبادلي معمم. وكل التميزات، سواء على مستوى النوع، الفرد، الثقافات، والتي دفع ثمن موتها هذا الانتقال العالمي للتبادلات، المنظم من قبل قوة وحيدة، تنتقم اليوم من هذا التحويل الإرهابي للوضع. لكن النظام نفسه هو الذي ابتكر الظروف الموضوعية لهذا الرد القاسي. عندما استجمع قواه وأوراقه، أرغم الآخر على تغيير اللعبة وقواعدها. القواعد الجديدة عنيفة لأن الرهان عنيف. والإفراط في القوة يطرح تحدياً غير محلول لنظام ما، الإرهابيون يردون بعمل حيث تبادله ذاته غير قابل للحل وغير ممكن. الإرهاب إذا في مواجهة الإرهاب. والحال أن الإرهاب ليس العنف. إنه ليس عنفاً واقعياً، محدداً، تاريخياً، العنف الذي له سبب وغاية، إنه ظاهرة متطرفة، أي أنه موجود في ما وراء غايته، بطريقة ما: إنه أكثر عنفاً من العنف. أياً كان هذا العنف التقليدي اليوم،

فإنــه يعــيد خلــق النظام، وهذا معروف، شرط أن يكون له معنى. في الواقع إن التهديد الوحيد للنظام هو العنف الرمزي، العنف الذي لا معنى له لا يحمل أي خيار أيديولوجي. والحال أن الإرهــاب لا يحمــل فــي داخلــه، وهذا جلي، أي خيار أيديولوجــي أو سياســي. لهذا حين يصنع الحدث، يكون هذا الحدث موضع ابتهاج خاص: عند الانتقال إلى الفعل الرمزي، لا نجد الابتهاج في الواقع أبداً أو في النظام الحقيقي للأشياء.

باختصــار، وللإتمــام، ومع برجي مركز التجارة العالمي WTC، ســقط حاجز الحماية بشكل قطعي، وفي وسط حطام المرآة المحطمة، بحثنا بيأس عن صورتنا.

كــان ماركس يقول: ((ثمة شبح يلاحق أوروبا اليوم هو شــبح الشــيوعية)). ونحن بوسعنا القول: ((ثمة شبح يلاحق اليوم النظام العالمي هو شبح الإرهاب)).

بلا شك، هناك سبب عميق وراء ذلك: وهذا ما لا يمكن تحملــه، هــو البؤس، الألم أو الشقاء أقل مما هي القوة ذاتها وعجرفتها. و ما هو غير قابل للتحمل وغير مقبول، هو بروز هذه القوة العالمية الجديدة.

جان بودريار (*)

***Jean Baudrillar*d**

(*) ولد جان بودريارد عام 1929، وهو عالم اجتماع بارع وفيلسوف قل مثيله في اتخاذ المواقف المبدئية، حاضر فترة طويلة من الزمن في جامعة باريس ــ x نانتير، وهو أحد المثقفين الفرنسيين الأكثر شهرة في الخارج.

مقدمة لمداخلة ادغار موران[1]

بقلم: فرانسوا ليفونيه

إن تقديـــم ادغار موران ليس بمهمة سهلة باعتباره مفكراً فـــريداً من نوعه مثله مثل جان بودريارد. وأعماله تشهد على فكـــر حديث يتوضع بجرأة في واقع عصره، و له الفضل من الـــتحرر من المقولات الجاهزة categorie. إن اعتباره هذا

[1] كتب هذه المداخلة فرانسوا ليفونيه Frabcois L'Yvonnet، وهو فيلسوف ومنشط البرامج الثقافية حول فرنسا ــ الثقافة.

الفكـــر مرتـــبطاً فقط بالانتروبولوجيا يعود تفسيره إلى جهل التنوع في حقله الفكري. فإذا كان ادغار موران يمارس مهنته كعـــالم اجـــتماع، فإنه لا يمكن مع ذلك اختزال فكره إلى هذا المنهج.

اعـــتقد أن الكلمـــة التي تصفه بصورة أفضل هي كلمة فيلســـوف. إنـــه فيلسوف بالمعنى الذي يكون فيه منظراً، أي الشـــخص الذي يدرك النظرية. فبالإغريقية، theoria، تعني الـــتأمل، الملاحظـــة. وأكثر من ذلك، تعني الرؤية التي تضم المعـــارف المتـــنوعة وتهدف إلى رسم الطرق الجديدة. وهنا يـــنجح ادغـــار مـــوران فـــي الإشـــارة إلى انطونيو ماشادو Machado : ((علـــى الطريق الذي يبتني وهو يتقدم)). تقول أحـــياناً بـــأنك محرتق حرفي أو عالم متميز في المعرفة: إنها صـــورة جمـــيلة جداً تختصر طريقتك في تنظيم مجموعة من الأفكـــار، مـــن التصـــورات لتطبـــيقها في حقل خاص. هنا استحضـــر مونـــتان Montaigne عـــندما يشير إلى النحل الجـــارس الـــذي يذهب هنا وهناك وينتج العسل. بهذا الصدد، اعـــتقد أنه يجب العودة إلى الكتاب الأخير لـــ موران، المنهج V، لقـــياس أهمـــية المعطيات التي يتعامل معها هذا الكتاب وقدرته في ربطها ببعضها.

موران ليس فيلسوفاً فقط إنما أيضا مبتكر المفاهيم، مثلما يحـــدد جيل دولوز Deleuze وظيفة الفيلسوف. هؤلاء الذين قـــرأوا أعمـــال ادغـــار موران استطاعوا ملاحظة الخصوبة

الـــنظرية لتصوراته الموجودة في قلب التركيب المعقد. دعونا نذكـــر علـــى ســـبيل المثال المبادئ الثلاثة التي تمثل الطابق الأخـــير لمبـــنى التعقـــيد، أو المـــبدأ الحواري الذي يتجاوز ويعـــارض المفهـــوم الهيجلي للديالكتيك، أي التناقض الذي لا يمكـــن حلـــه في حالة الحد الثالث. يجب على المرء أن يكون قادراً على التفكير معا بما يتناقض ويتكامل، كالحياة والموت، وذلـــك لتذكـــير هيراقليطس، ((العيش ميتاً والموت حياً))، أو العقـــل والجـــنون، أو أيضـــاً معركة شكسبير وماركس حيث يمكنك أن تتخيل أحيانا تواصلهما غير الممكن.

المـــبدأ المكرر هو المبدأ الثاني ــ الذي يبدو لي نموذجياً مـــن حيـــث المـــنهج ــ يتجاوز السببية الكلاسيكية، أي هذا التـــناظر القائم بين السبب والفعل: السبب ينتج الفعل، والفعل نتيجة للسبب، المقصود هنا الحلقة المكررة. بهذا الصدد، يمكن العـــثور علـــى مثال في كتابك حول الطبيعة التي تولد الثقافة والتـــي تغـــير الطبيعة بالمقابل. المبدأ الثالث هو مبدأ الكتابة الهولوغرامـــية hollogramique: إذا كان الجزء يتشكل من الكـــل، حينـــئذ يمكـــن إيجـــاد الكل في الجزء. هذا المبدأ له استخدامه في المجتمع من قبل الأفراد من خلال الثقافة.

ادغـــار موران فيلسوف بالمعنى الثالث، مثلما كان كذلك وعلـــى نهجـــه الفلاســـفة المبكرون، لأنه يؤمن بالعلاقة بين الـــنظرية والممارســـة. إنـــه لا ينتمي إلى النوع الحزين من

فلاسفة الصالونات، كذلك صاحب حلقات درسية، مما هو نادر بين المثقفين.

قبل أن يكون مفكراً كان رجلاً قادراً على اتخاذ المواقف الجريئة والواضحة حول عدد من الأسئلة المتعلقة بالأحداث الجارية. إنه رجل ملتزم بتاريخ عصره، والدليل على ذلك التزامه خلال المقاومة Resistance ومواقفه لصالح تسوية القضية الفلسطينية. لقد كتب ادغار موران في وقت قريب مقال في صحيفة لوموند Le monde [2]، خصص لهذا الموضوع المحزن حيث قام بتحليل منفصل بارز عن الانفعالات العامة. والمقصود هنا، عندما يتجرأ أناس شجعان لمعارضة الأفكار الوافدة ولإثارة نقمة الآخرين. لقد قاد كفاحه ضد الستالينية إلى ترك الحزب الشيوعي في الخمسينيات. والعمل الذي يقوم به في وزارة التربية الوطنية بالغ الأهمية وتعبير عن إرادة الانخراط في إصلاح البرامج التربوية. يحاول إقناع وزير التربية حول ضرورة إزالة الحواجز بين الأنظمة وربما تربية المربين، وذلك لإعادة طرح سؤال ماركس الشهير: ((من سيربي المربين؟)) ـ ونحن ما زلنا نطرحه على أنفسنا... وأخيراً، أعتقد أن ادغار موران مفكر

[2] راجع هذا المقال في صحيفة لوموند Le monde، عدد 4 حزيران 2002، ((إسرائيل ـ فلسطين: السرطان))، بقلم ادغار موران، سامي نير ودانييل ساليناف Sallenave.

تعقـيد المراكـز المتقدمة. يبدو لي أن كل ما هو واقعي هو واقعـك، وان كـل الذين لا يعرفونه عليهم قراءة كتابه الرائع شـياطيني، Mes demons. إنـه بـارع في علم الاجتماع والانتروبولوجـيا براعة ليفي ـ شتراوس في كتابه مدارات Tristes tropiquesحزينة المتعلق بالاثنولوجيا: فكر مؤسس ونقدي في آن واحد.

إن موضـوع مقابلتـنا هـو كالتالي: ((في قلب الأزمة العالمـية)). إذا كان لكل كلمة من هذه الكلمات صدى موراني (نسـبة إلى ادغار موران)، فلا بد من العودة إلى علم اشتقاق كلمة ((أزمة)). هذه الكلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية krisis وتنتمي إلى اللغة الطبية والى المدونة الأبيقراطية: الأزمة هي ما يجيز القيام بعملية التشخيص. يبدو لي أن المشكلة تكمن في صـعوبة إجراء التشخيص على حالة كوكبنا. هذا الكوكب هو فريسـة أزمـة تطال حتى الفكر. مذاك، إنه لأمر شرعي أن نتسـاءل حـول قدرة الفكر المأزوم والتفكير بالأزمة. أليس هـناك حلقـة قائمة تدين فشلاً يتعلق بمحاولة التفكير بالأزمة الكوكبية؟

فرانسوا ليفونيه

في قلب الأزمة الكوكبية

بقلم ادغار موران

في قلب الأزمة الكوكبية

هــذا الحوار يدخلنا إلى ((قلب الأزمة الكوكبية)). وكلمة ((كوكبية)) تشير إلى أن الأمر يتعلق بمشكلة يصعب معالجتها بســبب تعقــيدها. مــا يجري على هذا الكوكب له علاقة في الــتداخل بيــن التطورات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والقومية، والميثولوجية، والديموغرافية، الخ. لذلك فان المهمة

الأصـــعب تكمن في التفكير بكوكبنا، هذه المهمة هي أيضا الأكثر ضرورة.

بداية، أريد أن أعود قليلا إلى الوراء كي أزيل سوء تفاهم يقوم على الاعتقاد بان هذه الكلمة ((العولمة)) التي تستخدم منذ عام 1990 قد حملت على الافتراض بان هذا التطور بدأ فقط فـــي نهاية القرن العشرين. والحال أن العولمة ــ ((الكوكبة)) planetarisation المفـــردة التـــي أفضـــل استخدامها ــ هي المـــرحلة الأخيرة المعروفة بعملية بدأت مع الغزو الأمريكي وتطور الملاحة حول العالم بهدف إقامة أمتن الروابط بين كل أجـــزاء العـــالم. بالطـــبع، هـــذه العملية تسارعت مع ظهور الاســـتعمار والعـــبودية اللذيـــن يشكلان حقبة طويلة جداً من الـــتاريخ الإنساني. في الواقع، لم يتم القضاء على العبودية إلا في القرن التاسع عشر بينما كانت عملية إنهاء الاستعمار تتعمم بعد منتصف القرن العشرين.

إن المفارقـــة في هذه الحقبة من التاريخ الإنساني القاسية جـــداً هـــي أن هـــذه الأفكار بوصفها أفكاراً استنهاضية كان مصدرها دائماً بلدان الهيمنة نفسها. على سبيل المثال، توصل بـــارتلمويوس لاسكازاس Las Casas وهو كاهن اسباني إلى إقناع الاكليروس الاسباني بأن هنود أمريكا أناس طيبون وإنهم كائـــنات بشـــرية، بالـــرغم من أن المسيح لم يصل إلى البقاع الأمريكية. ويؤكد مونتانيه Montaigne بأن حضارتنا ليست بالضـــرورة مـــتفوقة. بـــنفس الطـــريقة يثبـــت مونتســـكيو

Montesqqueu بأنـــنا نمـــتلك رؤية انتوغرافية عن الفرس الذيـــن ربمـــا يمـــتلكون، بدورهـــم، نفس الرؤية حول الذين يقـــيمونهم. لقـــد تطـــورت مع إنسانية عصر الأنوار الأوربية الفكـــرة التـــي بموجـــبها يغـــدو الناس متساوين في الحقوق. وانطلاقاً من نهاية القرن التاسع عشر حاولت الأفكار الدولانية التـــي صاغها فيكتور هيجو، احتفل عام 2002 بمرور مائتي ســـنة علـــى مرورها خلق الولايات المتحدة الأوربية كمقدمة لظهور الولايات المتحدة العالمية.

ثمـــة ســـيرورة مـــزدوجة: سيرورة المهيمن وسيرورة المـــتطفل، الذي ينتزع من المهيمن كل مظاهره القاسية. هذه الظاهرة تتم انطلاقاً من اللحظة التي يطالب فيها المستعمرون بـــالحقوق باســـم أفكـــار مســـتعمريهم: حق امتلاك أمة، حق الإنســـان، حق الشعب. إذاً، ماذا يحصل بدءاً من عام 1990؟ إذا كـــان عهـــد الاستعمار فد مضى عملياً، إلا أن ثمة أحداثاً تحصـــل وســـتؤثر على مجريات الوجود البشري. عقب نهاية الاتحـــاد السوفيتي وإفلاس الاقتصاديات البيروقراطية، أصبح ســـوق الدولـــة عالمـــياً، أي كونياً وأدير من قبل الليبرالية. فالســـوق التنافسي بوسعه ليس فقط ضبط الاقتصاد إنما أيضا معالجة القضايا الاجتماعية الكبرى. هذا الاندفاع الجديد للسوق وللرأســـمالية مفعـــم بالدينامـــية لأنه، من ناحية، سوق جديد جيوغرافـــيا ومن ناحية أخرى يغدو الإعلام بضاعة كالشمس، كأوقـــات الفـــراغ، كجســـد إنســـاني. الجميع يدخل إلى دائرة

البضـــاعة، بمعـــنى آخـــر يجـــتاح الاقتصاد جميع القطاعات البشـــرية. فـــي الوقت الحاضر، يجعل تطور وسائل الاتصال الانتشـــار الفـــوري للأخبار في كل أجزاء كوكبنا ممكنا. بهذا المعـــنى، أنه المظهر التقني والاقتصادي في الوقت ذاته الذي يمـــيز العولمـــة mondialisation، العولمة المرتبطة بالفرز السياســـي عبر النظر إلى تطور الديمقراطية في بلدان الاتحاد الســـوفيتي السابق. كذلك عرفت أمريكا اللاتينية انفتاحاً سياسياً مـــع ســـقوط الديكـــتاتوريات غـــير أن هذا السقوط كان أكثر هشاشـــة. بـــيد أنه لابد من تبيان مقاصدنا مذكرين بان هناك عواقـــب تستمر انطلاقاً من الحقبة الاستعمارية الطويلة، وأن الاختلال في المساواة يبقى حاضراً بين الأطراف المختلفة من العالم.

العولمـــة كظاهـــرة ربمـــا تساهم في توحيد كوكبنا. في الواقـــع، إنهـــا تـــروج في العالم بأكمله اقتصاد السوق، العلم، التقنية، الصناعة، إنما أيضاً قواعد ومعايير العالم الغربي. هذه العملـــية التوحـــيدية ســـيعمم عملية معاكسة تظهر مع ظهور معارضة لهذه الوحدة بغية الحفاظ على هويتها الثقافية، القومية أو الدينـــية. ستشـــتد هذه المقاومة مع ظهور حدث لا قيمة له ظاهـــرياً فـــي نهاية القرن العشرين: أي عدم تآلف العقيدة مع الـــتقدم. في وقت سابق، كان الناس مقتنعين بان مستقبل العالم قـــد يكـــون أفضـــل بفضل ما يسمى بالتطور، أو التقدم. هذه الكلمـــات الســـحرية، بالنسبة للبعض، مرادفة لتحسن وضع

العـــالم الذي يتجه نحو النمو الاقتصادي والصناعي. لقد كان الاتحاد السوفيتي ينبئ عن مستقبل مشرق، والغرب كان يشهد بشدة تطور المجتمعات الصناعية. هذا الاعتقاد تبدد، مؤكداً لا مصـــداقية المســـتقبل. وتبعاً لبعض الأحداث يمكن القول بأن الـــتقدم لـــم يتم وما تم هو الأسوأ تمثل في العديد من الظواهر الارتداديـــة. بـــذا فـــان الوكلاء المنتفعين من التقدم ــ العلم، التقنـــية، الصـــناعة، الاقتصاد ــ هم ازدواجيون في العمق. فـــالعلم ينـــتج في الوقت ذاته معارف، منافع هائلة، إنما أيضاً أسلحة، كالسلاح النووي: الإمكانية الأولى لفناء البشرية. بهذا الصدد، يمكن "للإمكانيات المستخدمة أن تكون مفيدة في حالات عديـــدة، لكـــنها تخشـــى أن تتلاعـــب بالكائنات البشرية التي افـــتكرتها وابتكرتها. وإذا كانت التقنية أجازت تدجين الطاقات الماديـــة، فإنهـــا أيضا كرست وبشدة ذهنية تتأسس فقط على الواقع. إن منطقاً يناسب تماماً الآلات الاصطناعية ويطبق في المجـــتمعات البشـــرية التـــي هي ليست آلات بالمعنى المحدد والســـطحي للكلمة. بنفس الطريقة، تجيز الصناعة إنتاج مواد علـــى شـــكل سلســـلة غزيرة على هيئة طبقات شعبية تتزايد باســـتمرار. كذلك اثبت أن هؤلاء الذين يعملون في وسط هذه المشـــاريع استعبدوا من خلال عملهم. إضافة إلى ذلك، تفرز المجتمعات الصناعية حالات من التلوث والفساد للطبيعة. فيما يتعلق بمسالة المنفعة والرأسمالية، كانت أفكار ماركس ملائمة جـــدا. فالرأســـمالية أداة للتقدم لأنها تخلق بروليتاريا واسعة

قـــادرة علـــى القـــيام بالثورة. الطبائع الارتدادية وضعت قبل مـــاركس باعتبار أن ــ على سبيل المثال ــ القانون المجهول للبضـــاعة يهدف إلى القضاء على كل العلاقات الإنسانية التي تتصـــف بمجانيـــتها. ذلـــك هو أحد التنبؤات الذي يتحقق بعد وفاته. ينبغي الأخذ في الحسبان أن الحضارة الغربية، المماثلة ((للـــ)) حضارة لأنها حاضرة في كل مكان من العالم، تحمل فـــي داخلهـــا سرطانات ومشكلات. هكذا فان الأنماط الشهيرة للتطور التي نقلتها أوروبا إلى البلدان الأفريقية أو إلى الشرق الأوســـط قـــد فشـــلت. فإذا مات التقدم، حينئذ لا جدوى من المســـتقبل. وعندما نفقد المستقبل وعندما يكون الحاضر مقلقاً وبائســـاً، ماذا بقي لإنجازه؟ الطريقة الوحيدة للخلاص من هذا الإحـــراج هي العودة إلى الماضي الذي يكف عن كونه نسيجاً مـــن الاقصاءات ليصبح ملاذاً. لهذا السبب، تظهر في العالم ظواهر ــ التي تسمى التمامية، الأصولية، القوماوية ــ والتي تـــتخذ أشكالاً مختلفة بشدة لكن لها قاسماً مشتركاً هو الظهور في الأمكنة المأزومة.

مـــع ذلـــك في خضم هذه الأزمة، ينبغي التمسك بالأمل بـــنمط جديـــد من المجتمعات، المجتمعات العالمية. فعلام تقوم هـــذه المجتمعات؟ إذا كان مجتمع ما يتصرف بأراض ووسائل اتصـــالات، عندئذ يغدو العالم أراض مع وسائل اتصالات كما لو أن أي مجتمع لم يمتلكه في الماضي. دعونا نتتبع استدلالنا: مجـــتمع مـــا يتصرف باقتصاد منظم بشدة من خلال القوانين،

والقواعد، والتدخلات لقوة عظمى، بالمنظار الدولي، عندها سيعاني الاقتصاد العالمي من غياب في الرقابة. فإذا كان لكل مجتمع ثقافة خاصة به، فإننا سنشهد ظهور ثقافة تنتشر في العالم بأكمله. على سبيل المثال، المراهقون في عدد كبير من البلدان لهم نفس الأذواق الأساسية: كالسماع للموسيقى، وارتداء الملابس، الخ. هناك ثقافة مراهقة انتشرت في العالم بأكمله. ومجتمع ما له دائماً مساحته الجنوحية الخفية underground: مساحة نشرت مافيا عالمية لها علاقة بالمخدرات التي تنطلق من كولومبيا وتصل إلى روسيا. فيما يتعلق بالخيار السياسي للمجتمعات، أصبحت الدولة قاعدة مؤسسة. وبغرابة، فان هذه النقطة المشتركة بين المجتمعات كافة هي ما تقسمها: الدول القومية في سعيها إلى السيادة المطلقة تعارض رفع دعوى قد تكون دعوى ميتا ــ قومية عالمية. إذا كانت كل المجتمعات لها مواطنوها، فمن الصعب الإشارة إلى وجود مواطنين في العالم على الأقل بالقول. غير أن هناك منظمات عالمية غير حكومية خاصة بالمواطنين. على سبيل المثال، تناضل منظمة آمنستي Amnesty الدولية في العالم بأكمله التعسف البوليسي، وتناضل منظمة السلام الأخضر للدفاع عن الكائنات الحية، والمنظمة الدولية من اجل البقاء Survival International تدافع اليوم عن الأقليات المهددة بالانقراض. ومع Seattle و Poro Alegre ظهرت حركات توصف بأنها حركات مضادة للعولمة وهي في الواقع

ليست جميعها كذلك. البعض منها تكافح من أجل عولمة أخرى لأن العـــالم، حســـب القاعدة، ليس بضاعة، أي أنه يجب أن يكون شيئاً آخر.

لديـــنا بطـــريقة ما hard-wear لمجتمع ما وليس soft-wear، بمعـــنى آخـــر البنية التحتية وليس البنية الفوقية. فإذا كانت العولمة قد أسست قاعدة لمجتمع عالمي، فإنها غير قادرة علـــى تدشـــينها، حتى أنها تمنع ظهورها. لقد سببت أحداث الحـــادي عشر من أيلول صدمة للعالم بأكمله. وأدرك بان ثمة شـــبكة خفـــية تمتد إلى ما وراء حدود بلدان الشرق الأوسط، سميت بشبكة القاعدة التي قررت أن تقود صراعاً غير متكافئ ضد الغرب. وبما أن هذه الشبكة موجودة فان هناك ما يشير إلـــى ظاهـــرة انبثاق مجتمع عالمي يؤكد على ضرورة إنشاء بولـــيس عالمي. لهذا، فإن ثمة خياراً يفرض نفسه: هل مبادرة بوليس عالمي ستقودها الأمم المتحدة أم الولايات المتحدة التي أصـــيبت فـــي الصميم ؟ لابد من تصحيح خطا يتعلق بعبارة: ((الحرب على الإرهاب)). لأن الحرب لا يمكن أن تتم إلا ضد دولـــة، ولـــيس ضـــد منظمة ليست قائمة على دولة كمنظمة القـــاعدة. كـــان ابـــن سينا وابيقراط يؤكدان أنه يجب معالجة أســـباب مـــرض عندما يتم تشخيصه. فإذا كانت أعراض هذا المرض خطيرة، فانه لابد من خفض الحرارة. بعبارة أخرى، تكـــون الأعـــراض على مستوى الشرطة، لكن الأسباب تكون أكـــثر عمقاً. إن فكرة شرطة كونية ينبغي أن لا تستغني عن

سياسة عالمية. لدينا البوليس العالمي world policy وليس السياسة العالمية world politics التي يجب الارتقاء بها إلى المستوى العالمي.

اليوم، الوضع العالمي هو كالتالي: غني وفقير. والظاهرة الأساسية لا تكمن في الفقر المادي، وانخفاض في الدخل، إنما في الواقع التكاملي العميق حيث هناك المعدمون المحرومون من العلاج الطبي، إنما أيضا الإهانة التي يتعرضون لها من قبل هؤلاء الذين يمتلكون السلطة. فالظلم الأكثر خطورة ليس مادياً إنما أخلاقياً، فهو لا يقاس بالدولارات، بل بمدى حرمان البعض من الحقوق الأساسية التي يتمتع بها الأقوياء. السرطان، الظلم ـ الذي يعاني منه شعب كان عنوان مقالة نشر في مجلة لوموند Le Monde حيث ساهمت فيها ـ هو النصيب اليومي للشعب الفلسطيني. إن الإهانة المنظمة التي يتعرض إليها الفلسطينيون تحس بها بشكل كبير الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية والإسلامية. فإن بقي هذا السرطان بلا علاج، وان لم يعترف بحق الفلسطينيين في بناء دولتهم، فان الوضع العالمي سيزداد خطورة.

برأيي، إن السياسة العالمية تجبرنا على التغيير في مفهوم التطور، بما فيه التطور الحي والإنساني (الشكل المتملق للتطور). فكلمة ((التطور)) المقصود منها هي أن النمو التقني والاقتصادي عصب التطور الاجتماعي والإنساني، حسب المفهوم الغربي. والحال أنه يجب عدم نسيان أن في

المجتمعات الغربية المتطورة يوجد أيضا تخلف نفسي وأخلاقي وحـالات عجز واضحة. إن فكرة التطور تفترض أن يكون الوضـع الراهـن للمجـتمعات الغربية غاية كل المجتمعات الأخـرى بالإضـافة إلى انه غاية كل التاريخ الإنساني: ثمة ضرب من ((فوكويامية)) معممة ومضمرة حول فكرة التطور. هـنا، نسـتخدم بطيب خاطر عبارة الـ ((تطور الإنساني))؛ فكلمة ((إنساني))، في هذه الحالة الدقيقة، هي خالية من المعنى تماماً، أو أنهـا تحيل إلى نموذج إنساني غربي يحوي ربما فضـائل ما. إن الفردانية، أو الديمقراطية، أو حقوق المرأة لها خصائص إيجابية. بالمقابل، إن مفهوم التطور شبه ـ عالمي، ويـبدو أنـه هـو السائد. نحن نعلم أن هذا المفهوم أسطورة مـنمذجة من المركزة الاجتماعية sociocentrisme الغربية واقصـد أنـه محـرك الغربنة occidentalisation الهائج. العالمـية universalisme تعنـي أن الغرب هو الذي يرعى المصـالح العالمـية للبشـرية. والـتطور، بطابعـه التقنـي والاقتصادي أساساً، يجهل ما هو غير محسوب، وما هو قابل للتـبايـن كالحـياة، والألم، والفرح، والبؤس، ونوعية الحياة، والجمـال، والعلاقـات مع الوسط الطبيعي. بعبارة أخرى، لا يـأخذ بعيـن الاعتبار الثروات الإنسانية غير المحسوبة، مثل الكرم، الأعمال المجانية، الكرامة، الضمير. فالتصور الأعمى للتخلف يقضي على الكنوز الطبيعية الموجودة في المجتمعات البدائـية والتقليدية. بلا شك هناك في هذه المجتمعات أخطاء،

وخرافات، وقصور، لكن يمكن أيضا مشاهدتها في المجتمعات المهيمـــنة الغربـــية لكـــنها مجتمعات مغايرة. لدينا على سبيل المثال، أسطورة التقدم، أو كذلك أسطورة أصحاب العقل التي ليســـت إلا أوهاما لا عقلانية. في المجتمعات البدائية، كما عند هنود الأمازون، هناك معرفة بالنباتات الشافية. بنفس الطريقة، نعـــد أمييـــن هؤلاء الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، هذا الـــتعريف صحيح، لكن هذا الكلام يوبخ هؤلاء الذين يضعون يدهم على ثقافة ألفية سابقة للألف باء

كذلـــك، إن الـــتطور التقني ــ الاقتصادي ينتج حالات تخلـــف أخلاقـــية ونفسية مرتبطة بالتضخم في الذات الفردية. فإذا كانت الفردانية الغربية، بنظري، فضيلة كبرى في التاريخ الغربـــي، فإنهـــا تـــتحول إلـــى فر دانية مفرطة في الأنانية المحـــتدمة بفعل فقدان تضامن مع الآخر. ثمة عيوب تأتي من التخصـــص المبالغ فيه حيث كل فكر ينغلق ضمن قالب ويغدو غـــير قـــادر على معرفة العام والأساسي. هذا التقسيم المعمم الـــذي نشهده يحمل على الاعتقاد بان نظامنا التربوي يحتوي علـــى عيوب أساسية لأنه يقف عائقاً أمام المعارف بينما يكمن دوره فـــي ربطهـــا بـــبعض. إن تطور المساهمات الايجابية، كحقـــوق الإنســـان، والمســـؤولية الفردية، والثقافة الإنسانية، والديمقراطية ليست متناقضة مع بينوشيه، أو مع ستالين أو مع هتلر.

فـإذا كـان الـتقدم العلمي التقني، والطبي، والاجتماعي مذهـلاً، فانه لا يجب التقليل من قيمة السلطة المريعة المدمرة والتـي تجد تحت تصرفها العلم والتقنية. إنها للمرة الأولى في الـتاريخ الإنسـاني حيـث ثمـة إمكانية القضاء نهائياً على الإنسانية. كما أن الحياة على كوكبنا هي أيضا مهددة بالفساد: هـذه الأخطار هي ثمرة تقدمنا. فالتطور، ذو النموذج الغربي يجهل بأن هذا النموذج يحتوي على مساوئ، حيث أن رفاهيته تعمـم البؤس، وفردانيته تحتوي على الأنانية والعزلة وتفتحه المدينـي يولـد القلق والملل، وقوته المنفلتة تؤدي إلى الموت النووي. ماذا يعني ذلك؟ ينبغي عدم الاستمرار في هذا الطريق وعـدم التدلـيل إلـى هـذا الطريق الذي سلكناه: يجب تغيير الطريق. كل تطور جديد يفترض تحولاً، وكل تحول يفترض تـراجعاً، أي عودة إلى القوى الخلاقة. دعونا نستخدم مجازا حيويا بغية توضيح قصدنا. إن الخلايا القاعدية التي تعمل في لحظـة نمو البذرة قادرة على إنتاج أعضاء أكثر تنوعاً وأكثر تفـرعاً. ومـن المعـروف أن هذه الخلايا القاعدية قد تكون موجودة لدى الشباب، في أعماقهم وفي أدمغتهم. لقد أوضحت بعض التجارب المخبرية إمكانية إحياء قلب فأر بخلايا قاعدية حية. بمعنى آخر، إن القدرة على الخلق توجد بصور خفية في الإنسـان، هـذه القدرة لها بحد ذاتها إمكانيات تجديدية ـــ هنا اسـتعير بصورة مقصودة هذه الكلمة من ماركس الشاب الذي كان يتحدث عن الإنسان المجدد. بهذا المعنى، يمكنني أن أؤكد

بـــأن البشـــرية تتمـــتع بصفات افتراضية فسدت وتجمدت في الحضـــارات. ولهذا السبب فان الحضارات غرقت في أوضاع معقـــدة وأن التجديد بات يأتي دائما من الخارج. كان روسو يعتقد أن الطيبة الطبيعية موجودة؛ بالطبع أنه أخطأ بسذاجة ما، لكنه كان على حق فيما يتعلق بوجود عوامل فوضى وفساد في كـــل حضارة وبشكل خاص في حضارتنا. بطبيعة الحال، هذه المواقـــف ربما مبالغ فيها. ويرى بأن المسرح ينبغي أن يلغى لأنه يفسد الأخلاق. إن القاعدة التشخيصية التي قام بها روسو صـــحيحة، لأن كـــل تقـــدم خاصة إذا كان مادياً وتقنياً يعتبر تراجعاً بمعنى آخر. لهذا السبب ثمة ضرورة لبداية جديدة، أي عـــدم الاســـتمرار في نفس الاتجاه. بهذا الصدد، تتخذ عبارة هيدجر بعدها الحقيقي: ((البداية ليست خلفنا إنما هي أمامنا)). أرى لـــزاما علينـــا، الـــيوم، عندما نتحكم في نتائج السيرورة العالمـــية، أن نكف عن الاستمرار في نفس الطريق ونتصور بداية ما، لكن المسألة تكمن في أن نعرف كيف.

من المعروف أنه يجب خلق تضامن على كوكبنا وإنهاء الحـــروب والقضـــاء علـــى حالات اللامساواة الصارخة جداً. ويمكـــن القـــيام ببعض الأشياء في إطار الخدمات المدنية في الـــبلدان الغنية من اجل المساعدة واقعياً في تلبية الحاجات في الـــبلدان الفقـــيرة ولـــيس منح مساعدات وقروض تختفي في صفقات فساد غير مشروعة. ومن المعروف أن الغرب يعاني مـــن هيمـــنة الحساب، الفائدة، التقنية، فان لم يجد إمكانية حل

المشكلات الخاصة، فماذا يجب عمله؟ أحد الحلول يقوم على تأييد بناء مجتمع عالمي أو تعزيز سلطة الأمم المتحدة. لا بد من إنشاء برلمان عالمي وأيضاً التركيز على الكفاح ضد تلوث الحـــياة البيئية. هذه الإجراءات ضرورة ملحة يتعين القيام بها راهنا وعلى وجه السرعة على كوكبنا. لكن ينبغي الأخذ في الحســـبان بأنـــنا نعيش في عصر نشهد فيه فجاجة أمم، ودول قومـــية، وشعوب وأفراد. من الصعب جداً أن نطلب من دولة قومية أو من مجلس الدول القومية أن يتجرد إرادياً من سلطتها المطلقـــة ونقلهـــا إلـــى سلطة تتفوق عليها: وهذه هي المشكلة الكـــبرى التـــي تجد فيها أوروبا نفسها فيها. إن ظواهر سوء تفـــاهم بيـــن الشعوب مرعبة، فهي تحتدم عندما يظهر نزاع. فالأفـــراد لـــم يبذلوا أي جهد لفهم الآخر. والغرابة تكمن، في بعض الحالات، في أن نفهم الحضارات البعيدة أو الغريبة أكثر مـــن حضـــارات جيراننا الخاصة أو أسرتنا، لأن سوء التفاهم سببه أصلاً نحن. نحن لا نمتلك وعياً بالمواطنة المشتركة التي ينبغـــي أن تصنع منا مواطني ((الأرض ــ الوطن)). إن كلمة ((وطـــن)) تحـــيل إلـــى الذكورة والى الأبوة ــ والأرض إلى ((الوطن الأم)). حول فكرة الوطن لدينا مادة أمومية تتعلق بنا كمـــا نتعلق بها، ومادة أبوية تتمتع بسلطة، علينا تقديم الطاعة لها لأننا نعتقد بأنها شرعية. الأرض هي رحم، لأن الإنسانية ناتجة عن تطور بيولوجي ولد بنفسها من الأرض. البشر لهم هويـــة مشـــتركة، ليس نفس الشيفرة الو راثية، ونفس القدرة

الدماغية، والود، والصداقة وبالتالي الحقد. لدينا كذلك مصير مشترك. هذا المصير المشترك أملاه العهد الكوكبي وبالأخص التهديدات المميتة. إذا، لدينا مقومات مواطنة أرضية، لم نعيها بعـــد. عندما أردنا إصلاح البشرية، فكرنا بوسيلة واحدة، هي الأخـــلاق. والحال أن خطاب الأخلاق لم يغير أبداً السلوكيات الإنســـانية كذلـــك التربـــية أو الديانـــات الكونـــية الأخرى. فالتصفيات التي كان سببها ديانات المحبة كانت هائلة: فإذا كان هـــناك أدنـــى محـــبة في هذه الديانات، لربما كان هناك أدنى كراهـــية إزاء المنحرفين، الهرطوقيين، الملحدين. ثمة طريق آخـــر يقـــوم علـــى تصفية بنى الهيمنة للإنسان على الإنسان، وعلى تصفية الرأسماليين جسديا ولم لا الطبقات المتوسطة، أو الفلاحين.

لا أرغب في أن أختتم قولي بعبارات يائسة، لهذا السبب ســـأقترح مبدأين للأمل وسط الخيبة. عندما لا يتمكن نظام ما حل مشكلات يصادفها، فليس عليه إلا أن يموت، أو، وهذا ما يحصل، أن يخلق ميتا ــ نظام systeme__ meta ، أي نظام أكـــثر غنى، أكثر قوة عبر طريقة تحولية. ولتوضيح فكرتي، سأضـــرب مـــثالاً مستمداً من علم الحياة. نحن نعلم أن الكائن الحـــي يتشـــكل من العناصر الفيزيائية الكيميائية الناجمة عن العـــالم المـــادي: الحياة إذا ليس لها أي مادة أصلية، فأصالتها تأتـــي من تعقيد تنظيمها الذي هو تنظيم ذاتي. في البدء، كان يعـــتقد أن الجزيئات الكبيرة macromolecules قد اجتمعت

وتماسكت معا في دوامة ما، حيث كانت المكونات متضامنة. هــذه الدوامة الجزيئية استطاعت أن تبتكر مصدر الطاقة الذي تطور في لحظة ما. فالتعقيد وغنى المكونات هما كما المنظمة النفســية الكيميائــية عاجزان على التمسك بها، لهذا ظهر نوع جديــد من التنظيم : التنظيم الذاتي الذي يتمتع بصفات جديدة متمثلة في إعادة صياغة نفسها، ومعالجة الإعلام، والتحرك، أي كل هذه القدرات التي ستطور في الحياة. إن النظام النفسي الكيميائي العاجز على معالجة مشكلاته قد ابتكر ميتا ــ نظامه. لنفترض أن مراقباً اكتشف الأرض منذ أربعة مليار عام. في تلــك الحقبة، كانت الأرض قد أصيبت باضطرابات: ثورانات بركانــية، أعاصــير، عواصف، زوابع. وبما أن هذا الكوكب مختل، فانه يقول: ((إنه كوكب مختل حيث لا شيء يمكنه أن يحــدث)). مــع ذلك فإن الحياة هنا قد نشأت. فإذا عاد نفس المراقب، سيرى أن الحيوان والنبات قد تطورا، بينما لا شيء يجعلــه أن يــتوقع. عندما يتعلق الأمر بتغيير هائل، فان هذا الأخير يبقى غير مرئي. مثال آخر، يتعلق بتحويل الدودة إلى فراشــة: الدودة وهي تدمر ذاتها تبني نفسها وتتحول إلى كائن جديد آخر سيكون اليعسوب أو الفراشة. إنها مشكلة التحولات علــى المحك: كيف يمكن الانتقال من شكل إلى آخر؟ لا يمكن أبــدا توقع ذلك. هو ذا العنصر الأول الطافح بالأمل. العنصر الثانــي يعني أن ما هو غير محتمل يمكن أن يحدث غالباً في الــتاريخ. دعونا أولاً نعرف ما يمكن حدوثه: بالنسبة لمراقب

يــوجد في لحظة ما ويجد تحت تصرفه أفضل إعلام، هذا ما يمكنه أن يتوقع المستقبل. فيما يتعلق بنا، الممكن حدوثه مرئي جــراء انتشــار الأســلحة الــنووية، وصغر حجمها، وتطور الأســلحة الباكترولوجية، وفساد الحياة على كوكبنا، وتصاعد النزاعات. الاحتمالات تغدو كارثية بشدة، وما لا يمكن حدوثه حصــل في التاريخ أثناء حدث هائل عاشه أشخاص من جيلنا عام 1940: كان ذلك بمثابة الفشل التاريخي لفرنسا وأوروبا. في عام 1941، تدفقت الجيوش النازية على الاتحاد السوفيتي وأصــبحت على أبواب لينينغراد، موسكو والقوقاز. كان هتلر يعتقد أن إمبراطوريته ستمتد إلى نحو ألف عام، ربما كان هذا التصــور مــبالغ فيه، لكن هيمنته ربما استمرت. ما لا يمكن حدوثه قد حدث بفعل عوامل ثلاثة. أولاً، الجيش الألماني كان مــرغماً علــى وقف تقدمه بسبب قدوم الشتاء القارس. ثم إن هتلر الذي كان يستعد لشن هجوم في أيار من عام 1941، قد أجلــه شــهراً كــاملاً بسبب ثورة بلغراد. هذه الثورة الشعبية والعسكرية تشكلت لتعارض مرور الجيش على أراضيها حيث كــان هــدف هــذا الجيش الالتحاق بالجيوش الإيطالية بقيادة موسوليني. القوات البرية الألمانية خسرت إذاً شهراً قبل دحر المقاومــة اليوغوسلافية، بالأخص المقاومة الصربية. هل كان بوسعها الاستيلاء على موسكو لولا قدوم الشتاء؟ أخيراً، ثمة عــامل آخر محدد يتعلق بالجاسوس السوفيتي المذهل سورج Sorge الــذي أخــبر ستالين عن هجوم مرتقب للألمان، لكن

الدكـــتاتور لـــم يصـــدقه. هذه المرة، أخذ على محمل الجد نبأ الجاســوس الــذي يقــول أن اليابان كان يستعد لمغامرات في المحــيط الهادىء ضد الولايات المتحدة. منذ ذلك الحين، كان على ستالين أن ينقل قوات جديدة من الشرق الأقصى وإرسالها إلى جبهة موسكو. فقد استغل فرصة لوضع جنرال جديد على رأس الجـيوش السوفيتية، الجنرال فوكوف، الذي قاد الجيش السوفيتي إلى انتصار كبير ضد الجيوش الألمانية. وهكذا فان، بقلــيل من الوقت، كيف تحول الممكن حدوثه إلى ما لا يمكن حدوثـــه وما لايمكن حدوثه إلى الممكن حدوثه. دعونا نحاول الإيمـــان قلـــيلا بما لايمكن حدوثه، لكن دعونا نحاول أيضاً العمل لصالحه.

مداخلـــة الوسيط الفرنسي فرانسوا ليفونيه Francois L'Yvonet:

قبل إعطاء الكلام إلى المجلس، أود أن، أشدد على أهمية كلمة ادغار موران القادرة على الانتقال من الكوزمولوجيا إلى البيولوجـــيا، إلـــى الانتروبولوجـــيا مـــروراً بتغـــيرات على المستويات كافة، وبرؤى مختلفة.

الســـيد ادغـــار موران، إنك تعارض فكرة الخلاص في الإنجـــيل المسيحي (مادمنا سننجو جميعا، فلنكن أخوة)، انجيل الهلاك: مادمنا سنضيع جميعاً، لنكن أخوة. ألم يكن هناك نوع مـــن رؤيـــة تراجيدية تحيلنا إلى سنيك Seneque، رؤية ضد الأمل ((عندما تنسى التمسك بالأمل، هل يمكنني أن أعلمك أن

تنشـــد إلـــيه؟)). أليس في الوقت الحاضر يجب محاولة بناء مستقبل غير محتمل؟

ادغـــار مـــوران: عـــندما كنت أشير إلى الإنجيل كنت أتحـــدث بصـــفة شخصية: أنا لا أقوم بالتبشير ولا أسعى إلى فرض هذا الإنجيل. أردت فقط أن أعبر عن الفكرة التي تقول بأنه ينبغي عدم نسيان نهايتنا الأرضية.. من جهة أخرى، كل علم الكونيات الراهن يشير إلى أننا نسكن فوق كوكب صغير، فكوكبنا محيطي. لنسلم أن هناك رحلات طويلة سياحية كونية، فـــالأرض لا تـــندرج في هذه المسيرة. نحن ضائعون في هذا العالم: إنه الهلاك. لكن هذه البقعة الضائعة هي عالمنا بنباتاته وحـــيواناته. هذه البقعة هي بيتنا المشترك، وحديقتنا التي يجب حراثتها بالمعنى الأوسع من المعنى الذي عبر عنه فولتير في نهايـــة كـــتابه كـــانديد Candide، بمعنى آخر، الأمر يتعلق بتهذيـــب العلاقات الإنسانية. الهلاك هو أيضاً شيء إيجابي، فهـــو يدفعـــنا إلى الوقوف على مصيرنا الأرضي. ثمة معنى آخـــر يرتـــبط بكلمـــة الهلاك، إنه الوعي بالإنسان homo sapiens وبمصيره الفاني. نحن محكومون بالموت ونحن نعلم ذلك. أعتقد شخصياً بأن لا وجود لحياة بعد الموت. كالشمس، ســيموت كوكبـــنا الأرضـــي، لكن هذا ليس احتمالاً مباشراً. فالشـــمس لها فترة زمنية من البقاء وقد تمتد إلى أربعة مليار عـــام، لهـــذا فـــان لدينا الوقت الكافي للقيام برحلات كونية، ورؤية كوكب غير مسكون والإقامة عليه والتخلص من موت

النظام الشمسي. إن جهد التمديد المتناقص، وقوى التبعثر التي ولـــدت من الانفجار الأولي الذي سمي بالانفجار الكبير Big Bang قد تتراجع، بينما قوى التمركز التي هي قوى انجذابية قـــد تجمـــع ثانية عالماً وربما تنتج انفجاراً جديداً يسمى Big Crust : سيكون هناك عالم آخر لن يشبه عالمنا. أخيراً، أعتقد بـــأن المـــادة المرئية صغيرة جداً في الكون، وان هناك مادة أخرى تسمى، الطاقة السوداء التي تدفع إلى التبدد والى التمدد بشـــدة عالـــية. مما يعني أن الكون موعود بالتحطم والموت. وكمـــا كان يقول الشاعر اليوت Eliot ((سيموت العالم وسط نـــوع من الاضطراب)). إذاً، لا بد من قبول الفكرة التي تقول بـــان الهلاك يتشكل من معطيات لا يمكن التملص منها. الرد على الموت، نعرفه جيداً: المشاركة الحية، الحب. بهذا الصدد، يشـــير موباســـان Maupassan، فـــي أحد مؤلفاته، قوي كـــالموت، إلـــى الموت؛ حتى لو كان الحب لم يعد أقوى من المـــوت، فانـــه يبعث على الحياة. وأخيراً، أقول بأن إنجيل الهـــلاك لـــيس هوة يائسة، فلا بد من تعلم العيش في وسطها بالضرورة.

حوار مع ادغار موران

سؤال : هل منطق النظام الرأسمالي الذي وصفته هو منطق ميكانيكي يتملص من كل إرادة إنسانية إصلاحية؟

ادغار موران: المنطق الرأسمالي الذي أثبت هذا النظام في التاريخ يثير قوى معاكسة. في الماضي، نقل إلى الأوربيين إجراءات وضعت حداً للسلطات. كانت الرأسمالية مسيطرة في الدول ذات الحكم المطلق: هذه المجتمعات كانت تتأسس على مبدأ الحوارية بين عالم الرأسمال والعالم المدني. إلا أن هذا

المبدأ تحطم مع انفجار السوق العالمي انطلاقاً من عام 1890. لهذا فان المنطق الميكانيكي للرأسمالية سيجد، بسبب تجاوزاته وقصــوره، العناصر، والقوى التي ستكون موازياً لها. حالياً، ثمة اقتراحات وأعمال في موضع التنفيذ، كالاقتصاد الجمعي، أي تطور الاقتصاد التعاوني، التبادلي مع اقتصاد السوق. هناك طرق الرقابة مطلوبة على المستوى العالمي، إنما مازالت في عــداد الفرضيات. المنطق قوي جداً بحيث انه يجتاح مجالات عديــدة. علـــى ســبيل المثال، يعتبر مجال البحث البيولوجي قطاعــاً مهمـــلاً، فقــد دخـــل إلى المنطق الاقتصادي للربح والصـــناعة، غير أنني اعتقد أن هذه الظاهرة حركة وليس هنا يكمـــن تشـــاؤمي. إن احتمالية الانتصار المطلق للرأسمالية لا تزال بالنسبة لي غير مؤكدة، لكنها احتمالية هامة حيث هناك قـــوى متنامـــية ضـــدها، قوى تنهض وتنهض باستمرار. هذه الحركات الذاتية التي لا ترى مشكلتها الخاصة مفككة وبالتالي عاجـــزة عـــن خلـــق رد عالمي على المشكلة العالمية. اليوم، ينبغـــي الســـير نحو البحث عن جواب أو أجوبة متعددة على مشكلة تخصنا جميعاً: وهذا هو درس سياتل Seattle.

- العولمـــة تبدو مشكلة غربية حصراً، لأن العالم الذي نتحدث عنه عالم بالنسبة للإنسان الغربي هو المقيم الوحيد في عـــالم ينتمي إليه. لقد ذكرت هيدجر: لديه تعريف عن الحيوان بأنه أشبه بفقير في العالم، بينما الإنسان كائن غني في العالم. فمفهـــوم العـــالم يشكل عنصراً خاصاً بالإنسان. عندما يشاهد

الإنسان الآخرين يراهم دائماً على صورته. المشكلة التي تطرح، هي أنه من الصعب الإحاطة بحدود الغرب، لأن النموذج الغربي انتقل جيوغرافيا.

ادغار موران : العولمة mondialisation ولدت اثر انتشار بعض القوى الصغيرة في أوروبا الغربية، فهي تترجم بالغربنة occidentalisation، غربنة العالم التي تفتقر للتكامل. أثناء عملية الغرنة، وعبر الهيمنة، ثمة تبادلات تجارية: ليس فقط الطماطم، والذرة، والبطاطا التي تصل إلى أوروبا، إنما أيضاً القمح، والأحصنة التي يتم تصديرها إلى بقاع أخرى. كل ذلك لا يوضح الهيمنة، أي نظام الهيمنة في المبادلات بصورة أساسية. لنأخذ النموذج الإيراني الذي رفض الغربنة والذي يسعى إلى امتلاك الأسلحة الأكثر تطوراً. العالم تغربن بفعل توجهه إلى السباق في مجال التقنية. فإذا كانت الدول القومية قد حذت حذو النموذج الغربي، فان هذا النموذج من الدولة القومية الغربية قد وجد لمواجهة الغرب: ثمة مظهر جدلي وثنائي الجانب بالنسبة للعالم الذي يستعمل التقنيات وسلطات الغرب، إنها طريقة في إرادة الوجود تجاه هذا الغرب. كذلك هناك رؤية غربية مركزية ملازمة للعولمة. إن إحدى الطرق القائمة على التملص منها تقوم على فكرة مفادها أن الغرب ليس صاحب العقلانية،هناك في كل حضارة أشكال عقلانية. الغرب ليس المكان الذي أبعدت عنه الأسطورة، فهو

الذي خلق الأساطير: أسطورة العلم، العقل، التقدم. أطمح، في إطـــار العالمية، إلى أن يخلق اتحاد حضاري وثيق بين الشرق والغــرب، الشــمال والجــنوب. لقد اقتنعت بان تاريخ العالم الغربي قد قارب إلى الوعي بالعدم. فتدفق القوة التقنية أدى إلى قصور بحيث أن بعض الشعوب في الغرب باتت تأخذ ذلك في الحسبان بصورة لا شعورية. وأمام هذا البؤس لجأ هؤلاء إلى أنماط مختلفة من الحكمة لإيجاد انسجا م وملء فراغ داخلي، كاليوغا وغيرها. إن فائدة الحضارة الصينية بالنسبة إلينا، هي أنهـــا لـــم تعـــرف الوحدانـــية (الإيمان بالإله الواحد) لأسباب تاريخية، لكن حصلت أيضاً أشياء مرعبة. فالشمال طور إلى حد بعيد عالم فكر تأسس على الأرقام والتقنية، والغزارة التي أفضـــت إلـــى فساد في الأفكار حتى النوعية منها. والجنوب، المشهور بتخلفه وانحطاطه في عدة مجالات، لم يتعرض للغزو الهيمني من الشمال ويحافظ على احتياطياتها بالمعنى النوعي: وأقصد الجنوب المتوسطي. غير أنه لا ينبغي أن نمنع الجنوب من حيازة التقنية والرقميات، المسالة تكمن في أنه يجب أن لا نجعـــل من أنفسنا عرضة لهيمنة التقنية والرقميات. من المفيد نـــزع قـــناع كـــل مـــا هو غربي ــ مركزي تحت غطاء من المظاهـــر العالمـــية، بما فيه بالنسبة إلى الغرب نفسه. بالتالي يمكن الاعتقاد بأن القدرات النقدية الذاتية ولدت في خضم هذه الحضـــارة، وكـــان الأمر مقصوداً حين استشهدت بمونتينيه

Montaigne أو مونتسكيو، مثلما يمكنني الإشارة إلى ليفي – شتراوس، أو عالم الإسلاميات جاك بيرك أو كذلك هنري كوربان Corbin. إن مزايا العقل متعددة، فلا يوجد إلا العقل بمنطقه المنيع، وبقدرته الاستقرائية والاستنتاجية. كذلك فهو يضم قدرة نقدية يجب أن لا تقتصر على نقد الآخرين، قدرة نقدية ذاتية هي أكثر ملاءمة حتى لو أنها بقيت أ قلوية في الغرب: هذه الهدية الجميلة يتعين تقديمها إلى البقاع الأخرى كافة.

– إنك تتحدث عن القوى الناهضة، أجدك متفائلاً جداً. خلال حديثك، حاولت أن تتمسك بالأمل لكنني أجد صعوبة أن أصدق ذلك. حتى لو أن هناك قوى ناهضة، فان ذلك لا يعني شيئا، أنا متأكد من ذلك. أنا خائف من الغد، اعتقد أن السلطة، في شموليتها، تم الاحتفاظ بها من قبل الولايات المتحدة.

ادغار موران: أعتقد أنك لم تفهمني جيداً وأنك ارتكبت خطا حين اعتبرتني متفائلاً. لو كنت متفائلاً لقلت أن التفاؤل سيسود، لهذا فإنني لم أزعم ذلك أبداً. من كان بوسعه أن يتوقع انهيار الاتحاد السوفيتي؟ لا أحد في تلك الفترة كان بوسعه أن يتصور أن حدثا كهذا يمكن أن يقع. بنفس الطريقة، الولايات المتحدة ليست بمنأى عن التناقضات الداخلية، ولا حتى انتكاسات. فليس كل شيء تحت الهيمنة الأمريكية، هناك أشكال مقاومة يمكنها أن تتطور بموازاة هذه الهيمنة على سبيل

المـــثال، أوروبـــا. عـــندما تـــتحدث عن الظاهرة الأمريكية americanisme، الشـــكل المـــتطور على الظاهرة الغربية، فـــان فـــي هـــذا الـــبلد حيث تطور اقتصاد مذهل، وتطورت الرأســـمالية، والقـــوة التقنية والعسكرية. إنما لا شيء ابدي. كلامـــي ليس متفائلاً، حتى في فرنسا ثمة قوى ثقافية تناهض الغـــزو الهيمني، وإلا فإن ظاهرة مطاعم الماكدونالد اجتاحت كل شيء. ما أقوله دائماً هو أنني لست مطمئناً، انتظروا ما هو غير متوقع، اعتقد أن المستقبل غير متوقع، الأسوأ قد يحدث. مـــن جهـــة أخرى، أنهي كلامي بطريقة يغلب عليها التشاؤم مؤكداً أن الشعوب ليست ناضجة.

– هل هناك اختلاف بين فكرة الهوية الإنسانية بـــين ادغار موران ومبدأ الإنسانية بين فرانسوا غيبو Guillebaud؟

ادغـــار مـــوران: بيـــن هذين المفهومين، ثمة اختلاف وتبايـــن. أعرف الإنساني انطلاقاً من تعقيدها الخاص، حيث طبيعـــتها بيولوجـــية وميتا بيولوجية، بينما غيبو، في كتابه، يدافـــع عـــن الإنساني اللابيولوجي ضد التطورات المختلفة للعلـــوم. غيـــبو، برأيي، يرى الأخطار حين يطبق النموذج العلمـــي علـــى الإنساني. على خلاف غيبو، أعتقد أننا آلات حرارية: نحن نعمل في الدرجة السابعة والثلاثين، نحن لسنا آلة مدهشة بقلب يخفق، ورئتين يتنفسان، الخ. الآلة الإنسانية ليســـت مبـــتذلة، وليست محدودة. كل الشخصيات التاريخية

عــبارة عن آلات غير مبتذلة: المسيح، محمد، دوغول De Gaulle. قطعــاً، أتفق مع غيبو حول الفكرة التي تقول بأننا لسنا آلات تماماً. إلا أن الهوية الإنسانية تضم بصورة أفضل الطبيعة الإنسانية المزدوجة التي، من جهة، تعبر عن الوعي، عــن الفكر، وعن طبيعة العالم المادي والبيولوجي من جهة أخــرى.. فــي الواقع، نحن، أنا وغيبو، متفقون مع خلافاتنا على أفضل طريقة للاتفاق.

– ألا تنتقل عولمة مؤملة محلياً؟

ادغار موران: بلى، هذا ممكن، لكنني لست موافقاً على الفكــرة التي تقول بأنه يجب التفكير بالشامل وليس بالمحلي فــي الوقــت الــذي لا ينفصلان عن بعضهما البعض. لدينا حالات حيث يمكن للتحولات المحلية أن يكون لها تأثير على العالمي وبالعكس. أعتقد أننا أدركنا أهمية المحلي في قضية البيــئة، أي أهمــية الواقعــي لعمل مواطني ممكن. المشكلة الكبيرة تكمن في استحالة إبعاد فكرة سياسة عالمية لازمة، ما أســميه أخــيراً سياســة الحضارة أو سياسة الإنسان. بهذا الصدد، ألفت كتابين، **مقدمة في سياسة الإنسان ومقدمة في سياسة الحضارة**، كل ذلك يأتي بهدف استبدال التطور. أرى أن المحلــي يصــبح نموذجياً، على سبيل المثال، في أماكن كثــيرة مــن فرنسا، هناك أناس يعيدون الحياة لبحيرة كانت ملوثــة، أو إعــادة الحــركة لقرية عبر تشجيع إقامة مراكز

تجارية فيها بفضل إعانات مالية. ثمة اتحادات للعاطلين عن العمـــل تتشـــكل للسعي لإيجاد عمل جديد قائم على التضامن والمســـاعدة. يوجد إذا كثير من المبادرات لكنها لا تتعارف على بعضها البعض. ليس هناك أي حزب سياسي يهتم بهذه المـــبادرات أو يحـــاول أن يجمـــع قائمـــة بهذه المبادرات. فالمحلي يلعب دورا هاما لا ظهار شيء ما يتجاوز المحلي، بالتالي ينبغي أن تتوجد هذه الحياة المحلية.

– بعـــد الأخذ بعين الاعتبار الحالة الخطيرة التي وصفتها عـــن واقـــع قريتنا العالمية، هل يمكن الاستغناء عن الإيمان، العقيدة، النفوذ الهائلة التي ربما بوسعهم أن يوجدوها بغية حل كثير من المشكلات ؟

ادغـــار موران: الديانات الكونية ــ كالمسيحية، الإسلام، الـــبوذية ــ تخاطـــب الجمـــيع، أياً كان اصل المؤمنين. إنها الديانـــات التي أصرت على قيم العلاقة مع الآخر، سواء كانت قيم محبة القريب، المؤثرة جدا في المسيحية، أو فكرة الرحمة المتينة جدا في الإسلام. هذه الديانات لها فضائل واسعة، علتها فقـــط تكمـــن فـــي تقوقعها، أو في انغلاقها، في تعصبها، في رفضـــها للديانـــات الأخرى: شاهدنا تبعات الحروب الصليبية حتى أنها يخشى أن تندلع من جديد. برأيي، هذه الديانات كان علـــيها أن تـــتحد انطلاقـــاً مـــن نقاطها المشتركة: كالعالمية، التضـــامن، المحـــبة، بالمعنى العميق لكلمة ((الفضيلة))، التي

تصدر من القلب، الرحمة التي ربما تلعب دوراً هاماًجداً على كوكبـــنا. ألا تخشـــى الديانات أن تتغلق اليوم، كل ديانة منها تدعي أنها المطلق؟

مقامات العنف

تعليق: ابراهيم محمود

1- les événements du 11 sptembre : لمـــاذا الصـــيغة جمعـــية، حيـــث المـــتداول أكثر هي عبارة (حدث ســـبتمبر)؟ بودريار يقدّم الحدث في كثافة حضوره، وبوصفه الحدث العصي على التوقع والوقوع، الحدث الذي ما كان يجب أن يكـــون، ما كان يتوقع هو ذاته أن يكون فعلاً الحدث تبدى علاقـــة الـــذي يعرّفـــنا بحدثيـــته كإمكانية وقوع، ومن خلال الدلالات الحافة به ومضاعفاته المستقبلية وميثولوجيات المدرك الخـــاص بـــه، ونسبه (الأمريكي) إن جاز التعبير، غموض، لغـــزية، استفزازية كل ما تقدم تبقينا في غيهب الحدث بوصفه أكـــثر من حدث، أي أن هناك (حدثات) إن جاز التعبير، ومن

بـــاب التمايز، حيث لم يعد، أو لا يعود بالإمكان تناول الحدث لغويـــاً كمـــا هو حين التعرض إليه اصطلاحياً أو دلالياً، كونه يعرّف بمفهومه من خلال موقعه، تاريخه، ممثليه، فثمة حدث هـــو افـــتراض حدث، وحدث هو بين بين، وحدث هو الحدث الحـــدث بامتـــياز، وحدها القوى الكوكبية، السياسية تستنطق الحـــدث وتمـــنحه علاماته الفارقة بروزاً أو ضموراً. أليس ما جـــرى يشـــي باخـــتلال ما يعتبر الأصل المفاهيمي للكلمات، وانزياح المعاني ولاثباتية الدلالات؟

المحدث، كنيته بالمقابل،لهذا فإن جمعانية الحدث ترتبط بما هـــو فجائعـــي لاحقاً أيضاً، ليس مما لا يلزم توقعه، وإنما مما يمكـــن أن يحدثـــه الحدث وفي هذا الوقت بالذات، ليس على صعيد قاري بل وكوكبي كذلك من متغيرات، وقد حدث ذلك.

2- ما علاقة نظام عالم ordre du monde un بالعمارة architecture؟ هذا ما نتلمسه في عبارة: كل منظومة قيم غربية valeur occidental de tout un systéme،فالذي حدث لم يكن القتل مستهدفاً فقط، وإنما إحالة الرمز المعماري الي المعتبر ترجمان حضارة مجتمع وثقافة عينية (من شامخ عال إلى خفض) كما يقال، هو تحرير السماء، ربما، قبل الأرض، مجازياً من لوثة مقصودة ومسماة بالاسم، وفي نيويورك بالذات، المدينة المكثفة بالدلالات، المدينة الجديدة كاسم يتجدد وها هي تتعرض لانخساف، ومن فوق، ثمة بعد ميتافيزيقي (غيبي)، أو لاهوتي إيماني لصيق

باللعنة (استحضار لإرم ذات العماد من بعض النواحي)، ضرب العمران النموذجي مع ضرب القائم عليه عالمياً وهو البعد التجاري، مع رفض الصورة الواقعية فنياً، حيث مانهاتن أكثر من تجسيد للفن،ثمة استعراض قوة في المكان وفي المحيط البصري، تهديد لكل ما هو امتداد له. وفي حالات الخسف أو الرؤية ذات الطابع القياماتي، كما تجلت في نصوص كثيرة تناولت الحدث المذكور(دريدا، بودريار، موران إلى حد ما)، تبدو العين مقررة ماهية الحدث على الصعيد التأثيري، فالمباشرة والكثافة الدلالاتية لرمزية العين تشكلان قيمة كبيرة في إبراز الحدث عبر ربطه بالمكان، إذ أن الإطاحة المكانية هي المدخل الأول لفهم ظواهر مختلفة: حربية، طبيعية كالزلازل والبراكين والانهيارات والفيضانات، والتي أضفيت عليها تاريخياً مسوحاً ماورائية نظراً لكارثيتها، ولحفظها.

هـذا ما تجلى لاحقاً، وهذا مانتلمسه في المتكرر من جهة الإشارة إلى نوعية الفن الذي تعرض للتهديد والوعيد، وقد نفّذ جزئياً، ويعني أن التهديد الأعظم قائم.

للتأكـيد نقـرأ ما كتبه في مكان آخر (فقد علقت الحوادث إضـرابها، حـتى أنـنا جعلنا، مع عمليات نيويورك ومركز الـتجارة العالمـي الإرهابية وأثرها، حيال الحدث المطلق، أم الحـوادث، الحدث المحض الذي يجمع في صلبه كل الحوادث التي لم تحدث قط.

فــي إثــره، اهتز رهان التاريخ والقوة، لابل اهتزت أيضاً شروط التحليل)

- انظر حول ذلك مقاله "ذهنية الإرهاب" المنشور في كتاب تجميعــي هــو (ذهنية الإرهاب:لماذا يقاتلون بموتهم)، إعداد وتــرجمة: بسام حجار، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2003، ص17.

هذه المحضية purisme (من المحض pur) في لغتها النافذة الأثر لا تخفي بعدها العقيدي، أو حالة الطهرية puritanisme تجاوباً مع الحدث، حيث صيغة الكلام / الكتابة في الجمع المتكلم تحيل الحادث إلى الملكية المضروبة أو المهددة، والتهديد بالتقنين، فالخصوصية عممت هنا، إذ الكاتب فرنسي، والتفعيل الحدثي لا يخص قيماً أمريكية هنا، بقد رما أن الغرب مستنفر أيضاً.

لكن ثمة رثاء للمكان المنمذج أمريكياً ــ غربياً، خوفاً على البذخ التقاني دون مراجعة حساب ــ حسية ترقباً لما يمكن أن يعقب ذلك، حيث الرمز القابل للضرب وما يمثله مكشوف في عراء البصر والبصيرة، وأشير إلى ذلك منذ عقدين من الزمن وأكثر، حيث الرؤياوية في مضمارها النيتشوي قاهرة هنا (فنيورك هي كينغ كونغ، أوالبلاك ــ أوت، أو القذف العمودي tower inerno، ولوس انجلس هي الانقصاف الأفقي، انكسار وانزلاق كاليفورنيا داخل المحيط الهادىء earth quake، والتشنجي والاستبدال العنيف. فما عادت السماء

تسقط على {اسك، وغنما المناطق التي تنزلق. إننا في كون شطور، أطواف جليد رضراضة، انسياقات أفقية. إن أثر الزلزال العقلي كذلك، الذي يترصدنا هو (نوع من) الانخساف (العضوي) انفلاق الأشياء جد المنقبضة، انشطار لأشياء التي تضيق، التي تنعقد على فراغها. لأنه في العمق (} لم توجد الأرض أبداً، وإنما فقط أدمة مجزّعة، ولا العمق، الذي من المعروف أنه في انصهار. إن الزلازل تقول ذلك، فهي موسيقى الموتى للبنية التحتية. لن نترصد بعد الكواكب ولا السماء، وإنما الآلهة الأسطورية التحتأرضية التي تهدد بالانخساف في الخواء..)

– انظر حول ذلك (الانذهال والعطالة) في مجلة (العرب والفكر العالمي)، بيروت، العدد العاشر، 1990، ص127.

المقطع الآنف الذكر في طوله النسبي يواجهنا برعب الحدث المتعدد المصادر، ولكنه في العمق ينفتح على المحيط الخارجي للعقل الأداتي، بوصفه العقل المغيّب المنذر بالخراب والمستوجب الحيطة مسبقا.

3– ما علاقة مانهاتن بالنظام الرأسمالي، ما موقع البحر الدلالي هنا؟

تبدو الرأسمالية في البعد المعماري لمانهاتن حقيقة بصرية، إنها السيطرة الفضائية على الأرض، فمانهاتن برج محلق عالياً، انبثاق أرضي منمذج، وهذه البعد المعماري تجسيد لبروميثيوسية على الطريقة الأمريكية، انقلاب على المكان

نفسه في صيغته المعتادة، والتحقيق الأكثر عجائبية لخيال خلّاق رأسمالياً، ودخول في الحداثة وعبور لها إلى مابعد الحداثة واستئثار بجماليات الصمت بالذات، والنظام الكابيتاليسمي (أحيل هنا الـــ cap كحامل ومتضمن قوة فكرية واستراتيجية إلى الرأس والـــ talismanique إلى الطلسم حيث الرأسمالية في طابعها الأمريكي حيث لحظة المفارقة لما هو أوروبي، ومعانقة للمثال المرصود والمنشود أمريكياً) إذ تبدو الرأسمالية وعبر النموذج المعماري الفائق التشكيل وقد كانت بمثابة اللاحقة ism الأوروبية، ثم غدت السابقة الأوروبية ولتتبدى فيما بعد الحالة الأكثر كونية والتي لا سابقة لها، تبدو هي المتفردة وقد تنحّت (رسملة العالم capitalism du monde) لتحل محلها عبارة (أمركة العالم Amercanisation du monde)، ولهذا فإن بودريارد بقدرما يفصح عن رفضه للبعد الوحشي المتصحر (وهذه المفردة الأخيرة عزيزة عليه حيث يستعملها كثيراً) يعبّر عن تقديره العميق للرمز المحلّق.

علينا الحديث هنا عن الطابع الثقافي والفكري، والحقيقة الديوانية والتدبيرية لما هو أمريكي، حيث البحر اللصيق بمانهاتن بمداه المفتوح والأزرق وكأنه يوغل في اللامتناهي ويخترق اللاتناهي ويغيّب الميتافيزيقا ذاتها كمفهوم مفارق، من خلال تجاوز عالم ما وراء البحار، إذ أن أوروبا ذاتها وقبل غيرها، أمست،مع العالم الآخر، في (ما وراءها)، ولم تعد أمريكا محصورة في الركن الأقصوي (ما وراء البحار) إنما

بات العالم نفسه حاضراً كمفهوم داخل حدود المدى المجدي لها، ومحصوراً بها، والخشية في هذه النقطة، أي في أن الرغبة الرأسمالية في احتواء المكان قد استنفدت المكان نفسه، والحدث الذي ارتبط بمانهاتن لم يكن سوى التذكير بالكارثة المترتبة على تجاوز الحدود.

يغدو مانهاتن قيد الانفجار والانهيار، والبحر قيد الثوران، عبر العقلانية الموغلة في التقانة الاستعراضية، والمحرّضة على القيام بأي عمل إرهابي.

أذكر هنا ما أبدعه "أدونيس" قبل الحدث بأكثر من عقدين من الزمن، وهو يتبصر في نيويورك القيامة القادمة وعلى طريقته، وهو يخاطب في بعض فقرات قصيدته القصيدة (قبر من أجل نيويورك)، الأمريكي المختلف ويتمان:

ويتمان،

لم أرك في منهاتن ورأيت كل شيْ. القمر قشرة تقذف من النوافذ، والشمس برتقالة كهربائية. وحين قفز من هارلم طريق أسود في استدارة قمر يتوكأ على أهدابه، كان وراء الطريق ضوء يتبعثر على مدى الاسفلت، ويغور كالزرع بعد أن يصل إلى غرينبش فيليج، ذلك الحي اللاتيني الآخر، أعني الكلمة التي تصل إليها بعد أن تأخذ كلمة حب وتضع نقطة تحت الحاء.

قصيدة مجنونة، هذيانية استبصارية غير مألوفة تعني المستقبل، الحدث الذي يستوجب الحدوث في ضوء الحدث

المتجلي بصرياً كرمز وعلامة هنا، وهي تقرأ في ضوء الانهيار الكارثي، وتبدو الكتابة البودريارية أدونيسية تماماً. وفي الوقت نفسه فإن نيتشه رغم كل ما يقال عن العمق النهليستي في كتاباته، يعتبر مأخوذاً بالقياماتية كلحظة رؤيا (فجأة ــ مثلاً ــ يتبدى كل شيء خلاف ما هو عليه) حتى على صعيد التعبير وفذاذة الصورة المأسوية، يكون في هذا المنحى، ولذلك تبدو النزعة الإيمانية المسيانية مؤثرة في نصوصه المختلفة، توخياً لما لا يراد له أن يحدث، وتمنياً لما هو مبتغى، وبودريار في إثره ولكن ليس كمقلد وإنما كمفكر يعاين الحدث وانفجار المعنى (من النوع القياماتي) فيه، والذي يهدد الكون في مجمله، دون أن يستثني ــ ربما ــ مفعّله (أمريكا هنا)، نظراً لهول ما يمكن أن يحدث.

4- لماذا الحديث عن البرجين من منظور حسابي وعلى صعيد وصفي؟

بودريارد مأخوذ بالوصف، لكنه ليس ظاهريانياً، إنه المتمعق في الأغوار.

لنتحدث بدورنا عن البلاغة البصرية للمشهود له عبر البرجين التوأمين(وهذه الصيغة تنفتح على ماوراء المنظور، عن كثافة زمنية،واشتقاق نسبي، حيث القوة الرمزية مضاعفة، وفي الوقت نفسه يكون انهيارهما فاجعة مركبة)، إذ يمكن ملاحظة الرياضيات التي تشكل المدخل الحصيف إلى قرن الحداثة وما بعدها، وقد بدت في هيئة السنام الجملي الحامل

لهودج حضارة تقانية متأرجحة من خلال البنية العمرانية بالذات، والتي تصيغ بيان التحدي الخارق لميسمها

الرأسمالي، مؤطراً بكامل العدة المعززة لتحصينها، وكأن في الإجراء الرياضي حضور المقاييس الكاملة الدقة وقد طبّقت على أرض الواقع، وقد بدا المستقبل المجال الحيوي المفتوح للنظام الداعم لها، النظام الممضي عليه رأسمالياً وهو في نوع من تأبيد الذات أو أبدية الاسم. ولهذا نجده يقول في مكان آخر، مشدداً على مضمون فكرته بخصوص حالة اللاتوقع لما جرى سواء من قبل المعنيين بالحدث أو الذين كانوا وراءه (وبأي حال، الأرجح أن الارهابيين (كما الخبراء) لم يتوقعوا انهيار البرجين التوأمين الذي مثّل ، أكثر بكثير من ضربة البنتاغون، الصدمة الرمزية الأشد.لقد شهد الانهيار الرمزي لسستام بأكمله جرّاء تواطؤ غير مرتقب وكأنه بانهيارهما من تلقائهما، كأن بانتحار هما هذا، انضم البرجان إلى اللعبة لكي يبلغ الحدث تمامه).

– انظر (ذهنية الإرهاب)، المصدر المذكور، ص20 هذا اللاتوقع وعبر اللعبة الإعلامية حيث لم يعد بإمكان الواقع سوى أن يكون عرض حالة إزاء فخامة وشراهة ومتاهة المتخيل، هو إفراز العقل المعاش خارج ما يعنيه بوصفه الآخر، وقد صدم بما يخصه كمفارق له في الحالة هذه، وهذا يعيدنا إلى المقولة البودريارية المشهورة حول أن حرب الخليج الثانية لم تقع رغم وقوعها كان هناك لعبة احتراف فائقة

الخيال، وحدثنا من طرازه، مع فارق أن الحرب غطت منطقة بأكملها، أما الحدث الذي تم في سرية تامة وصمت، فقد انفجر كجني القمقم ليجعل العالم كله ساحة حربه.

5- ما علاقة بلاغة المرآة la rhetorique du miroir بالأبراج التي فقدت كل وجه وواجهة لها؟ ما علاقتها بالمدينة التي فقدت صفتها الاسمية؟ أي عدمية هنا؟يمكن للمرآة هنا أن تقودنا إلى لعبة السحر في مكاشفة ملابسات الواقع، حيث تستقرىء الخفي في العمق.، وتستنطق الظاهري.

ولا علاقة للمرآة هنا بالمرآة التي نراقب فيها مظهرنا الخارجي، المرآة البودريارية شديدة الشفافية إلى درجة أنها لا تسمح لأي كان في أن يرى ما هو قارَ في الأعماق من الجهة الأخرى تلك المانعة للحقيقة المموّهة، المرآة ترتبط بلعبة المتخيل، بالفعل الواقعي الآخر، بحيوية اللامعقول الذي هو مرفوض المعقول المشرعن والمخوّل بتقعيد للعلاقات المتداولة، والذي يتجاوز المحسوس، إنها فضائية اللعبة، وتبديد الوقِع عبر الالتصاق به، وفي الوقت نفسه استهلاك العقل من شدة البقاء طي مفاهيمه المعتادة، وهي بالمقابل لعبة الشفافيات الإعلامية بمواقعها المتحركة هنا وهناك.

مانهاتن تتطلب المرآة المتعددة السطوح، وأكثر من العقل الاستعراضي،والعدمية المتبدية هنا النقيض الكلي للعدمية المدشنة للموت والسلب.

وثمة معاينة لفظاعة اللعبة، حيث الإرهاب الحاصل يستدعي إرهاب النظير، يزكّي كل احتمال، يقع خارج المفكر فيه، وهنا عودة إلى أطروحة "تييري ميسان" المتلخصة في اعتبار الحدث: الخديعة المرعبة (ماذا لوكان هذا زائفاً؟ لو كان مفبركاً؟ إنها فرضية على قدر من اللاواقعية بحيث أنها تؤخذ في الاعتبار، كما يستحق كل حدث استثنائي في أن يتعرض للتشكيك في صحته: هكذا تتجاوز فينا الحاجة إلى حدث جذري كما الحاجة إلى الخداع الكلي. استيهام تلاعب غالباً ما تثبت صحته: فقد أصبحت عمليات الاستفزاز القاتلة، والهجمات الإرهابية و"الحوادث" المدبرة من قبل المجموعات والأجهزة السرية، أمراً شائعاً وبأعداد لا تحصى..).

- انظر مقاله (جحيم السلطان) في كتاب (***ذهنية الإرهاب***) ـ ص120.

بين المرآة والمواجه لها علاقة محسوسة، والمرآة في الوضع المذكور، وبالطريقة التي يعرج فيها على ذكر المدينة ومواصفاتها وحتى طارئيتها الجلية، لاترينا سوى المدينة من الداخل، المدينة الحقيقة وهي في رعونة الغفلة الزمنية وفوضى الحسابات، ويكون الوجه خداع المتخيل الوهمي، أو فانتازما المعاش، وفي كل ذلك يصعد الإرهاب بمثيله ونقيضه معاً. الإرهاب حاضر باستمرار بسبب عدم التفكير فيه،

ولأن الاستخفاف بالواقع حيث يعتبر من نوع (كامل الدسم)، يبلغ الحد الذي لاحد بعده، فلا فضاء خارج المأخوذ

الواقعي، ولا خلاف مع المعاش،وفي هذه المركزة الصراطية والمؤتمتة يضج العقل نفسه بما هو فيه وعليه، لهذا تمارس اللاعقلانيات مهامها غير المعلنة، وأدواءها الكامنة لنسف الواقعية المفرطة، أو مايسمى بالسوبرواقعية Hypérrealité، إنه انتقام العنف نفسه من حالة اللااعتراف به، في عالم لايمكن التعريف به من دونه، فهو علامة من علاماته الكبرى، وربما العلامة الاستثناء أحياناً، كلما تم التنكر له، ومن هنا، وحيث يغدو العالم كلاً واحداً، وهو واهم الواقع، وبهمة التقانة المؤسطرة، يكون الداخل المسرح الحيوي لكل طارئ، قيد الانفجار، ومباغتة العقل السديمي السائد.

إن تقديم المدينة بوصفها الحاضرة المثلى والحضور الأمثل وحضرة المثل العليا مجسدة في إشاراتها وعلاماتها وواجهاتها ونظام السير فيها، كل يلغي مفهوم العمق، وتكون الحقيقة كما هي المدينة، في المشهديات المحسوسة بأضوائها الساطعة التي تمنع النظر من التدقيق، يعني كل نسف المرآة، وإلغاء مفهوم الوجه المميز تيمنا بوجاهة تقانة فائقة سحرية الطراز، كما هي نيويورك، في شوارعها، وجسورها المعلقة، ومداخلها، وواجهاتها الخارجية ونصب الحرية المواجه للمحيط اللامتناهي، وألغاط لغاتها، ومسارحها، فهي المدينة الدولة بضخامتها، لهذا تحضر باستمرار كفاجعة بصرية (كانت نيويورك فضاء يستحيل اختراقه، متاهة من خطوات لانهاية لها، وأياً كان المدى الذي ذهب إليه أو كانت إجادته معرفة الأحياء والشوارع، فإنها

كانت تتركه دائماً بشعور بأنه قد ضل الطريق)، هذا ما جاء في مطلع رواية "بول أوستر" المشهورة (*ثلاثية نيويورك*)، الترجمة العربية (ص 28)، هي رواية المدينة اللامدينة، ببذخها المضحي بحقيقة ما تكون عليه، فالعنف هنا هو عنفها الذاتي ضمناً.

وفق تصور كهذا يصعب التجاوب مع بودريار دون وعي مفهومه المتعدد الأوجه، كما هو الموضوع ـ الحدث الذي يتعرض له، إلى أن القارىء يجد نفسه وسط متاهة وهو يواجه صعوبات التأويل..

6- ثمة ولع بالترابطات بين المرئي visible واللامرئي invisible، لأن في ذلك بروزاً للمدينة الظاهرة حدثاً، للمدينة الحدث، للمدينة التاريخ ومشروعية الإقامة فيه، للمرآة وما تخفي وما تظهر، وهو معنيّ كثيراً بالمموه والشبحي (السيمولاكر)، هو ولع بالحقيقة العصية على الامتلاك، لهذا فهو يشدد على عنف العالمي، على عنف العالم الذي بات موحداً بالعنف، وهو عنف لا يفارق العولمة ومخزونها العنفي، وكيف أن ذلك يؤدي إلى هدم المعمار وما يحتويه من عنف متعدد الصيغ. إن هدم / نسف المعمار

La destruction de cette architecture يعرّف بالعنف المعمول به داخلا بوصف المبني توابيت حجرية sarcophages فالعنف معلّم عليه داخلياً، ولا انتباه كاف إلى ذلك، وإنما هناك ما أسمية بحالة تعييش، état vivat حيث

الترويج للمدينة الممثلنة يتم من خلال النمط المعلن عنها وعلى مد النظر.

وهنا أجدني مضطراً باللجوء إلى ذكر مقطع طويل نسبياً لتوضيح الصورة البودريارية، ومن خلال موقفه من أمريكا كمدينة، كإرادة عيش وحياة ونوعية الخوف المميزة لها، ربما بسبب غطرسة مماثلة:

(إن هجاس الأميركيين يكمن في أن لا تطفأ الأضواء. لذلك تظل الأضواء ساطعة طوال الليل في البيوت. وفي ناطحات السحاب تظل المكاتب المهجورة من الموظفين مضاءة. على الطرقات الحرة وفي وضح النهار تسير العربات وقد أضاءت مصابيحها. في "دانس بالمزايف" بفينيس حانة صغيرة تبيع البيرة في حي تقفر أرجاؤه كلياً بعد السابعة مساء، إلا أن لافتة النيون المضاءة بالأخضر والبرتقالي تظل مضاءة طوال الليل عبثاً في القفر، هذا ناهيك عن التلفزيون المبرمج للبث لمدة 24 ساعة من 24 ساعة، والذي يعمل بطريقة هاذية في غرف المنازل المهجورة أو في غرف الفنادق الخالية من النزلاء. ليس هناك سراً أعمق من سر التلفزيون الذي يبث برامجه وصوره في حجرة فارغة... باختصار، لاأحد في أميركا يقبل بحلول الليل والسكينة، ولا أحد يقبل بتوقف السيرورة، التقنية.. هنا يمكن القول أن مثل هذا السلوك يعبّر عن الخوف أو الهاجس، ويمكن القول أن هذا الهدر اللامنتج هو عبارة عن فعل حداد...الخ).

– انظر "بسام حجار" في: مديح الخيانة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997، ص 112 ــ 113.

ثمة حدة قولية إلى درجة الرعب الموازي للحديث عن نيويورك، أو عن أمريكا، وهو رعب لا يمكن التوقف عنده بوصفه الرجم الموجه، وإنما النفير المنبه لما يمكن أن يحصل في مواقف كالتي كتب عنها.

إنه كرنفال حداد، رثاء يتوجه إلى المستقبل بلغة تزاوج بين الفلسفة والشعر، وتعتمد الصورة كثيراً، وليس هذا بتحليل لما نحن بصدده وإنما محاولة التعرف على العنف المكتوب عنه بودرياريا، وما عدا ذلك يمكن تصنيف فكره النقدي رافضياً، معتقدياً حتى النخاع، وهو نفسه يحذرنا من فورته.

7– لابد من الحديث هنا عن الانتحار المزدوج double suicide. ثمة مرافعة قضائية من نوع خاص، إنها قضية فلسفية بامتياز، هي قضية الفلسفة التي تتناول موضوعها من موقع الجاني والضحية، ومن جهة أخرى لاجان ولا ضحية في (العرف) الفلسفي، إنما القضية اللاقضية حيث تناول الموضوع من النواحي كافة أو في وجوهه اللامحدودة، وترك المجال مفتوحاً للآخرين لمقاربة الحقيقة، بودريار يقدّم لمشهد العنف ليس بوصفه جنحة محلية أو جهوية محددة، بقد رما سعى إلى طرح حقيقة العنف في لبوساتها المختلفة، وعلى طريقته، كما أقول باستمرار، ثمة ذهاب بالموضوع على أبعد مدى، وربما

كان للإرهاب حضور في هذا المنحى نظراً لفرط المتخيل وانفتاح الفلسفة على أبعد حدود ماورائيتها.

لا يتدقق النظر في انهيار البرجين، ولافي الرمز المسقط عليهما، ولا في الذين قاموا بالعملية، ولا في الذين أصبحوا ضحايا، إنما في كل ذلك، حيث تم أو يتم استنطاق الصامت المغيّب أو المستبعد من الموضوع. ما الذي تبدى للكاتب الرائي وهو يتمعن في انهيارالأبراج (Tours)، هكذا بلغة الجمع؟

En les voyant s,ffrondrer d,slles-mêmes,comme par implosion,on avait l,impression qu,elles se suicidaient, en reponcse aux suicides des avions-suicide.p16)

(حين بدت وهي تنهار بذاتها،كان هناك انطباع وكأنها تنتحر، رداً على انتحار الطائرات المنتحرة)

ثمة روحنة Espritation للمدينة، لكينونة المعمار، في محاولة للتسلل إلى ماوراء المنطوق، إلى ماوراء العياني بالذات، وإيجاد التناظر بين الناظر والمنظور، حيث تبدو مانهاتن في صلب البنية المعمارية، في استعراضيتها المحلقة بنوع من الوقاحة المشهدية، وكأنها عصية على النخر الزمني على التضعضع، وكأنها والأبدية سواء هنا، لا حساب لآلة الزمن، للطوارىء كما يبدو، حيث كل ماتم القيام به يستند إلى نوع من التفسير المتفرد الذي لا سابقة له ولا حقة عليه، كأن

الجماد نفسه وهو في كلكله الطولاني في انتظار منقذ فضائي أو يأتي بحيث يضاهي المحلّق مباهاة نفوذ. لا يعوج البرج سوى الاستحالة لما لا ينبغي التفكير أكثر من المفكر فيه، هي استحالة الاستمرار بعقلانية منمذجة (لا حضور لتوماس كوهن ولا اهزنبرج في المخطط الهندسي المعماري لحظة التفكير في المكان وعلاقته بالزمان)، تبدو عظمية المعمار رغم شفافيتها منزوعة النقي، مجردة من الغطاء المقاوم لأكسدة المناخ

ودول الزمان وحوادثها. ذلك التواطؤ المصعّد به بين البرجين والطائرة، والذي يشبه لعبة كومبيوترية أو الخدعة السينمائية بامتياز، أكثر النقد قسوة إلى أخلاقية المعمار الهندسية، وهزئها الأرعن من الطارىء، وهو هزء لا يترجمه سوى عنف المعنى وإرهاب المضمون، ولهذا كان الانفجار الداخلي

Implosion وليس الخارجي explosin الحقيقة المترتبة على تجاهل قانون طبيعي وقيمي.

هل يحيلنا بودريارد إلى قوة مجهولة انتقمت من الروح الخاوية للمعمارية المتعجرفة؟هل يذهب بنا بعيداً إلى أن الطبيعة تمتلك القوى الرادعة التي تعيد كل شيء إلى ما هو عليه ليبقى ما هو عليه محافظاً على قانونه الخاص الذي لا يمكن النيل منه، بوصفه رادع كل قانون محكوم به لا العكس؟ خصوصاً وأنه إزاء أمريكا يمنح موضوعه قيمة تكاد تكون ماورائية متحالفة مع الطبيعة بالذات.!

لا يمكن التفريط بالمعنى عبر إجابة مألوفة، إنما الممكن قوله هو الصفة الراديكالية لتفكيره، كون الموضوع بلغ الحد الأقصى من الراديكالية المضادة، لقد استثمر كل ما يمكنه البروز فيه من ناحية الاحتواء المكاني، إنه الباحث عن موازين قوى بوصفه الحريص على سوية المكان عموماً، وما حدث ويحدث ليس سوى التعبير الأكثر تجريدية في مواجهة التجريد المكاني، والبحث عن التوازن مجدداً.

8- هل من حكمة في أسبقية الانهيار الرمزي l;ffondrement symbolique على الانهيار الفيزيقي أو المادي l,ffondrement physique ؟أي نظام يكون مستهدفاً هنا؟ من الملاحظ قبل كل شيء أن المقصود بالنظام أي systeme ليس النظام السياسي كما يتبادر إلى الذهب في مضماره العربي، إنما هو جملة قواعد ومبادىء تشكل الفضاء الثقافي والاجتماعي والجمالي لأي مجتمع، ولهذا تستخدم كلمة (سستام) معربة دون ترجمة تجنباً لأي لبس جانبي، والانهيار الرمزي هو خاصية هذا السستام.

الانهيار الرمزي هو انهيار الرهان المعقود عليه الأمل المستقبلي الذي يمتد باتجاه الأبدية المتصورة، لم يعد هناك مستقبل، لأن النقانة الممهورة باليقينية الفارطة صوّرت المستقبل طي الامتلاك، وكأن هناك إقامة في الجنة التقانية، ويعني ذلك الحصانة المحمية لكل رموز المستقبل، ولعل الرد الجاري تصويره يصعد بالحدث نفسه إلى ما ليس يقينيا، ثمة

تصفية الذات بالذات، وهذا يعيدنا إلى المقولة المتعلقة بالانتحار مجدداً، حيث يقول الكاتب في مقال آخر له متداخلاً مع مقاله هنا (عندما انهار البرجان تولد شعور بأنهما يردان على انتحار الطائرتين الانتحاريتين بانتحارهما الخاص، قيل"الله نفسه لا يسعه إعلان الحرب على نفسه" فليكن معلوماً، إنه، بلى، يستطيع. فالغرب، وقد تصرف كما لو أنه في موقع الله) ذي القدرة الإلهية الكلية والشرعية الأخلاقية المطلقة) يغدو انتحارياً ويعلن الحرب على نفسه) ـ انظر: ذهنية الإرهاب، ص20.

ويتبدى هذا العنف الماورائي الذي تم التكتم عليه من خلال الإشهار بالمستقبل والتشهير به في آن، انطلاقاً في الضلوع في مؤامرة غير مسمّاة لاستباحة العالم، ولتمرير العولمة المنتقاة، بعيداً عن الآخرين، وهؤلاء محسوبون حضوراً وقيمة، والبعد القيمي الانتحاري بغض النظر عن مفاعيله ومداخيله أكد ذلك العنف اللامرئي الذي يوجد أحداثه معه خارج حدود التصور، ويعرّض مجمل

التوقعات المخططة لها حتى لو في افتعال حدث فاجأ العالم، واستحضر العالم بالحدث، وذلك من خلال

طبيعة الحدث المباغتة، وربما هناك أكثر من طبيعة له لم تتجل بعد، فالذين قاموا بفعل الانتحار تجاوزا النتائج، وحدود الملاحقة القضائية، وربما لن يظهر وحتى في المستقبل القريب، طالما الحدث الجاري إخراجه وحد العالم تحت مظلة

مرعبة هي الارهاب (لقد استطاعوا أن يجعلوا موتهم سلاحاً مطلقاً ضد سستام يحيا من استبعاده الموت، ومثاله هو "صفر من القتلى"، كل سستام يقوم على صفر من الموتى، هو سستام حصيلته عدم، وكل وسائل الردع والدمار لن تكون مجدية ضد عدو سبق له أن جعل موته سلاحاً هجومياً مضاداً. "ما همنا من القصف الأمريكي! إن رجالنا يتوقون للموت بقدر ما يتوق الأميركيون للحياة!". ومن هنا معادلة السبعة آلاف قتيل الذين تكبدهم، دفعة واحدة، سستام "صفر من القتلى".). ـ انظر المصدر نفسه، ص25.

ليس بالامكان،بسهولة، التجاوب مع تحليل كارثي، مرعب كهذا، لكنه في حدود اللاعقل، أعني العقل الذي يشرف على العقل التكنوقراطي والديجيفراطي والميديقراطي، يغدوحقيقة مؤلمة، كون العالم المتقدم في ضوء ملابسات الحدث جرى تصويره مكتنفاً بالسرعة، كما هي حكمة الثانية التي تعبر ذات قيمة أدائية ولكنها أداتية، وهي كذلك إجرائية، وكأن (لا كأن هنا في مفهوم السرعة المقايضة حتى لما هو قيمي) نلكم السرعة مصانة ومراقبة في تصاعديتها، فثمة صرامة وجهامة حياة في إثرها، أذكّر هنا بما قاله بودريارد قبل عقدين من الزمن (إن التوتر والإبطاء هما شكل تراجيديتنا الراهن، منذ أن أصبح التسريع هو سلوكنا. فلم يعد الزمن بديهياً في تلاحقه العادي، منذ أن تمدد، (شرطنا) اليومي للبعد الطاقي للواقع. فلم يعد منوّراً بالإرادة، والفضاء بدوره لم يعد منوّراً بالحركة. فما

دامت وجهتهما قد ضاعت، فلا بد لنوع من الوجهة أن يتدخل من جديد لكي يعيد إليهما بعضاً من أثر تراجيدي).

- انظر: الانذهال والعطالة، المصدر المذكور، ص126.

9- لاشيء يضاهي حجم الدمار ويستحقه: ليس هذا الدمار الذي يتحدد بصبغته محمولاً بالرفض الأخلاقي لما حدث، ليس التركيز جار على الحدث بوصفه دماراً ينبغي استهجانه فقط، ولا على الطابع المأسوي للحدث، في فلسفة بودريار لا مكان للقيم المؤطرة، وليس المقصود هو التعبير فرحاً عما حدث، إنما الوقفة الفلسفية تخص بنية الحدث المتفردة، الحدث باعتباره عطب تاريخ بكامله من خلال مؤثراته الضاغطة، انقلاباً عقلياً على ذاته، وتهديد المجتمع من الداخل، صراعات يقينيات متطاحنة في العمق، وكما يعلمنا الحدث من خلال مضعفاته، وقد هيّأنا لما يمكن أن يجري عبر التلفزة، وهذه عبر جمهرة كبرى من التحركات التي تمت ومازالت تتم على أعلى المستويات، وما هو مضمر شغّال بمعان لم تترجم بعد واقعياً. الدمار الحاصل يستوجب كل ما من شأنه قلباً للمعايير وتغييراً في المعيش اليومي ومحاولات مختلفة للتكيف مع الحدث في صيرورته (ما يمكن أن يؤول إليه ويصيره) وسيرورته(ما مآلاته)، هذا ما حققته المقدمة / المقدمات

ما تم تلمسه في التو، بخصوص التوتر الذي تبد عالمياً، عبر التصريحات والتلميحات والإشارات.

فالعمق الحيوي لكارثية الحدث يتعاين في الموقع الذي كان عصياً حتى على الافتراض، فكيف به وهو اعتراضي، وهو الذي أوجد ما يؤخذ به واقعياً؟كل شيء يبدو وكأن الموضوع في غايته الموقعية المصورة يتعلق بالميتافيزيقا، بكائنات غازية، ولم يتم التدقيق فيها، كما أعلمتنا البداية (إذ لم يعلن أحد أن المسؤول عما حدث، ثم بدا الجميع وبدرجات متفاوتة مسؤولون عن الحدث، ومتآثمون بالتبادل).

بينما الإرهاب كان يمارس الإعلان عن اسمه من خلال التوريات وزحزحة حقيقة دون أخرى على مستوى المعمورة. لابد من التركيز من جديد على رمزية الحدث (وحده العنف الرمزي مولد للفرادة. وفي هذا الحدث الفريد، في فيلم منهاتن الكارثي يتضافر في ذروتيهما عاملا الفتنة الجماهيرية في القرن العشرين: سحر السينما الأبيض، وسحر الإرهاب الأسود، ضياء الصورة الأبيض، وضياء الإرهاب الأسود) ــ انظر(ذهنية الإرهاب)، ص34.

هذا التقابل بين الأبيض والأسود يحيل إلى عنصرية اللون العرفية كثيراً، إلى البعد المعتقدي السيء الصيت المتعلق باللونين. لكن البياض بقدر ما يضيء ويشع يعمي البصر ويغيّب الحقيقة، وكذلك السواد بقدر ما يشتد يمنع من الحركة، ولعبة الخداع البصري في الأبيض أكثر حضوراً، كون السواد الحالك، لا يلمّح إلى صورة ما، ربما يكون هناك، وهذا موجود في البياض أيضاً.

الإرهاب في حقيقته يترافق وحقيقة الموضوع وكيفية بث مؤثراته، إنه حاضر بطريقته وبنسبة تضاهي نسبة الحقيقة المطروحة، نسبة التجريد المقدّمة بنزاهة مشهدية، إنه الانتقام ممن يتجرد منه إذاً (الإرهاب كالفيروس، ماثل في كل مكان، هناك حقن عالمي متواصل للإرهاب الذي هو كالظل الملازم لكل سستام سيطرة، مهيّأ، أينما كان، لأن يصحو كعامل مزدوج)، كما جاء في (*ذهنية الارهاب*) ص22.

كل نفي للارهاب استعداء له واستدعاء، فإحالته إلى الخارج هي من باب وجوده إلا خارجياً بوصفه الغريب الذي يحدث أزمة ويجد لها منفذاً، على طريقة "رينيه جيرار" في (العنف والمقدس)، الإرهاب حاضر على صعد شتى وفي المكان الواحد نفسه، لنلاحظ علاقة الأرضة بالأرض، وفي الجانب المقابل

الأرض terre بالفرنسية وعلاقتها بالإرهاب terrorisme بالإرهابي Terroriste، كل ذلك يدفع إلى الانفتاح على ما هو داخلي حيث جرى التركيز كثيراً على ما هو خارجي حفاظاً على يقين مموّه.

10- لامرئية المعمار، لامرئية الواقع، عبر غياب وتغييب الشبهات وتضليل المنظور: لا يتقدم بودريار إلى الأمام، وهو يفلسف الحدث، ويتعرض العنف في الجهات غير المنظورة جيداً، بقدر ما يتقدم ويتراجع، ينظر عالياً وسافلاً، ودفعة واحدة بغية مقاربة المضلّل والمضلل واقعاً، وليس هناك ماهو

أكثر إيغالاً في التضليل العام مثل المعمار البللوري (الكريستالي)، حيث يعكس الضوء ويحيل الخارج إلى ارتطام بذاته، مضاعفاً من وضعية ارتكاسية، مبقياً الداخل وراء كتامة الزجاج، أو شفافيته التي تري كل شيء في أمان تام، فلا داعي للقلق، هذا هو اللامرئي الهمجي، الذي يتربص بالواقع المغاير، وكل هذه اللامرئية تفتح الأفق على كل ما هو صدامي، ومن قبل الأغلبية، سوى حراس المشهد السري ومولفيه يعلمون بحركية اللعبة ولكن دون إمكانية الإحاطة بالنتائج، حيث التأويل نفسه يتطلب مقايضة لمفهومه وما يستحضره من رقاقات حقائق مؤرشفة ومؤثرة، يقول كاتبنا بهذا الصدد (كل حدث اليوم هو من حيث الإمكان، منعدم النتائج، ذلك إنه يشرع الباب على جميع التأويلات الممكنة، وليس بمستطاع أي واحد منها أن يوقف المعنى: تساوي إمكان (احتمال) كل الأسباب وكل النتائج، منسبة متعددة واحتمالية) ــ انظر (الانذهال والعطالة)، ص 124.

تصبح الفلسفة من النوع البراغماتيكي، والتي تجسد الطابع الأكثر تألقاً للثقافة الأمريكية ومنذ أكثر من قرن، وهي بذلك تكون الاختلاف الآخر عما هو أوروبي قبل كل شيء، على صعيد النظر إلى الفلسفة كمعنى، تصبح على المحك منزوعة المدى مصدومة بالحدث البادي شعائرياً.

11- الحدث ــ الصورة. الصورة ــ الحدث - événement image. Image- événement. هما متداخلان.

بالنسبة لطبيعة التداخل بينهما، يصعب تحديد وشائج القربى نظرا لوجود أكثر من هدف استراتيجي مؤمّل تحقيقه من خلالهما، وكل منهما مأخوذ بالآخر، وتبقى الصورة الأكثر جاذبية قيمة هنا، ولعل الحدث الذي يشغلنا هنا هو الذي يحدد آفاق الحقيقة المبحوث فيها وما إذا كانت حقيقة أم لا،فالخلاف الأكبر هو كيفية تقديم الحدث مصوّراً، كيف تم تصويره،؟ وبشكل أدق: كيف أوجدت الصورة حدثها؟ حيث المتخيل يلعب دوراً كبيراً في إذكاء نار الحدث، وإبراز معضلاته apories، وبدا الحدث لاحقاً ليبدأ بدوره فاعلاً في صنع وتمتين الصورة المختلقة، لا الصورة الأصل، فهذه غير موجودة حتى الآن، ولن يكون لها وجود، طالما أنها صناعة الحدث المتخيل قبل كل شيء، ولهذا يجري الحديث كثيرا عن الحقيقة الشبح، الحقيقة الظلية، أو السيمولاكر، والذي يهم الكاتب هو هذا البعد الخفي وقد عرّف به، بوصفه الحقيقة التي انبثقت حدثاً. إن العين المجردة لم تعد بدورها ذات قيمة، لابد من عين أخرى

(داخلية) توجه الحقائق، والكلمة ذاتها باتت بيان الصورة، راهنيتها ومشعور بها انطلاقاً منها.

"ريجيس دوبريه" يقول (المرئي أصبح في هذا العصر صاحب السلطة، وهو ما يتناقض مع الكلية القدرة السابقة والمعترف بها بالنسبة لكبار اللامرئيين (الله، التاريخ، العقل)). هذا صحيح مع إضافة وتوضيح أن المرئي هذا ليس المعتمد على العين الناظرة، إنما العين الباصرة، تلك التي ترى

ما هي راغبة فيه وتحيله ثمئذ إلى المشهد العيني حقيقة واقعة، على الآخرين قبولها، بحسب القيم المبثوثة فيها.فالصورة آتية من (فوق) من الفضاء الخارجي، وبناء على توجهات وتعليمات من الأرض، وفي مكان شديد السرية، وكل ذلك يحيل اللامنظور إلى قضية خلافية، وتغدو السماء ذاتها بكل لاتناهيها مرصودة من قبل الأقمار الفضائية، حيث البث يتم بالصور من زوايا معينة، ولا يعود اللامرئي سوى الكائن في المبثوث.

هنا يكمن الرعب الذي يولد سلاسل الرعب الخاصة به، بما يشبه صندوق باندورا الذي انفتح بشروره في مكان معلوم (في هذه الحالة إذاً ينضاف الواقع إلى الصورة بوصفه جائزة رعب، بوصفه رعشة إضافية. ليس مرعباً وحسب، بل هو واقعي أيضاً. وعوض أن يكون عنف الواقع ماثلاً أولاً، ثم تنضاف إليه رعشة الصورة، تكون الصورة ماثلة أولاً، ثم تنضاف إليها رعشة الواقع) ــ ذهنية الإرهاب ــ ص33.

هو الكلام نفسه وارد هنا ، حيث المقال شبيهه في نقاط كبيرة، وقد أوردت هذا المقطع لتبيان أثر العلاقة المزدوجة من خلال قراءة مرافقة في ضوء ما أثرته هنا عن موقعية الحدث ــ الصورة. الصورة ــ الحدث، كون الصورة تتحكم فينا اليوم أكثر من أي وقت مضى، إذ (وهذا مثال) ماذا أعلم في أي صورة أنا الآن، أو غيري، عندما أعبر حدوداً معينة، أو يتم التدقيق في شخصي من خلال الصورة المركبة أو الموضوعة

عني، وانطلاقاً من مواصفات معينة تتلبسني ولا علاقة لي بها، ولكنها إحبولة الصورة هي التي تقوم بكل هذه الأدوار، ليأتي الحدث مؤكداً حقيقة ما يقام به من إجراءات معينة.

ثمة تشويه هنا للفضاء بمعناه الروحي، أو الماورائي، فالله نفسه لا يعود النظر إليه بوصفه اللامرئي سماوياً، كون الصورة المأخوذة من الفضاء، تسيء إلى اللحظة التي يفكّر فيه، باعتباره الموجود عالياً، وهاهي الصورة توجه الواقع وتصنع أحداثه من الموقع الذي يفترض وجود الله فيه، رغم عدم وجوده في موقع محدد، ولكن صناعة الصور الفضائية بدورها لا تتم من موقع معين ومن جهة محددة، هذا هو الأشكال، والذي من شأنه منح الصورة المزيد من جاذبية اللامرئي ولكن المزيد من وهم الحضور

أيضاً، والقلة القليلة من المؤمنين يمكنهم نفي ما ينقل إليهم، حيث يدركون زيف الصورة المبثوثة، ولكن الملاحقات التي تتم في إثرها تتزعزع ذلك اليقين، وإلا فإن التعرض لتهمة الإرهاب واقع بيسر هنا.

12- ما هو الخيال الأكثر رعباً، أو إعادة خلق الواقع باعتباره الخيال الأكثر رعباً comme l,ultime et la plus rdoutable fiction؟ هذا يعيدنا إلى البحث في الصورة المكثفة والرعب المتمثل فيها، وما يمكن أن تحدثه من (رعبات مماثلة) إن جاز التعبير، كون الرعب وحلقات الرعب الأخرى التي بدت واقعية بالصوت والصورة الحيين هذه المرة (بعد

وقوع الحدث)، شكلا العلامتين الفارقتين الأكثر بروزاً للحدث المتفرد،. يعيدنا ذلك إلى البنية الأخلاقية للحدث، فالذي جرى تصويره وتصوره صحوة الشر المحض ونقلاته ضد الخير المحض وسكينته، وفي دولة (العدالة المطلق)، كما هو معلوم ومروّج له، وهو صدام مفتعل، ولكنه يعرّف بخاصية اللعبة، ومدى مجافاته للواقع. إن النظر إلى الواقع بوصفه الواقع المرسوم كما تريده الذات لاأخلاقي، والرد عليه بعنف مماثل بدوره لاأخلاقي، وسلسلة الردود تكون تابعة مما كان ونابعة مما هو لا أخلاقي، وهذا يوضح الغباء الكامن في فكرة القوة المجردة من صيرورة التاريخ أو حركيته، وبالتحديد ذلك المجال الضيق لأخلاقية الفلسفة التي خانت حقيقتها وهي أن تكون قضيتها لامواقعية محددة، هي قضية الإنسان بخيره وشره المتداخلين، وخصوصاً ما جرى في غثر الفلسفة المعتبرة أنوارية، ويمكن هنا التمعين فيما أورده بودريار، ولو أن المقطع طويل، ولكنه مهم بالنسبة لموضوعنا (جوهر المسألة يكمن ها هنا: في التفسير الخاطىء كلياً الذي انتجته الفلسفة الغربية، فلسفة الأنوار، لمسألة الخير والشر.نحن نعتقد أن تقدم الخير أي ارتقاءه بالقوة في الميادين كافة (العلوم، التقنيات، الديمقراطية حقوق الإنسان) يتماشى مع هزيمة الشر وتقهقره. إذ يبدو أن أحداً لم يدرك أن الخير والشر يرتقيان بالقوة في الوقت نفسه ووفق الحركة نفسها. وانتصار أحدهما لا يؤدي إلى زوال الآخر، بل العكس تماماً. غالباً ما ينظر إلى

الشر، من الناحية الميتافيزيقة ،بوصفه هفوة طارئة،... ففي الجوهر لا يقدر الخير أن يحبط الشر إلا بتخليه عن كونه خيراً، لأنه، باستئثاره بالحكر العالمي للقوة إنما يتسبب بشرارة لإشعال عنف مواز) ـ انظر (**_ذهنية الإرهاب_**) أيضاً، ص24.

ولقد جرى تصوير الحدث بوصفه شر الآخر، ولو أنه مفتعل، وكل هذه الزلزلة لمضاعفة البنية المعمارية للحدث، أي جعل الحدث مرئي كما تم بثه موازياُ للمعمار نفسه: الشر المستطير الذي ينبغي التصدي له، ويكشف ذلك عن القوة الاحتياطية الهائلة للثقافة التي تعمل على تسكين الناس في الجو اللاحدثي، على تعييشهم بوصفهم (الناس الذين لا ناس سواهم) رغم العنف المحسوس واقعياً وبودريار،لا يتوانى عن اللجوء إلى المفردات الأكثر دلالة عن العنف (وداو بالتي كانت هي الداء)، ليس لوجود نزعة التشفّي (باعتباره فرنسياً)، وإنما كون الحقيقة الجاري التمثيل بها وتمثلها دفعته إلى ذلك، وهو يربط الثقافة الأمريكية بالصحراء كدلالة على القسوة، حيث الصحراء تبسط مداهمة النظر بلونها الرمادي المؤلم والمهدد بالتلاشي والعدمية ولاتناهي السراب، وفي الحيّز الأمريكي يستحضر الثقافة المطبوعة بالنمطية (الأمريكي هو الأصل، هوالباراديغم، السوبرمان)، ولهذا يقول (لم تخل أميركا يوماً من العنف أو الأحداث أو الرجال أو الأفكار، ولكن كل هذا لا يصنع تاريخاً. يؤكد اوكتافيوباث بحقّ أن أميركا قد وجدت في سياق الرغبة في التفلت من التاريخ. والرغبة في تشييد

يوطوبيا بمنأى عن التاريخ، وهذا ما تم جزئياً وإنها لا تزال تبنى في هذا السياق) ـ انظر(مديح الخيانة)، المصدر المذكور، ص115.

هذا يقودنا إلى طبيعة الصدمة التي تترتب على الحدث الذي كان عليه ألا يقع وأثرها أمريكياً.

إزاء الهول المعاش على وطأة الصدمة وفعل الترهيب الممارس، يمكن معاينة الهوة النفسية التي يخرج منه الصوت الأمريكي الرسمي متوتراً، صراخياً، مختنقاً، كون ما حدث، وربما لم يتوقع البتة أنه سيكون هكذا، لهذا ينكشف الأثر الصادم (إنها (الضربة) تنبيه لمغالاتهم في أداء الخير وفي تجسيد الخير) ماذا كان يجب أن يحدث ثمئذ؟ (الأميركيون كان يعوزهم مثل هذا الجرح) لقد تعرضوا للهجوم في بيرل هاربر وفق شروط الحرب، وليس وفق معايير الاعتداء الرمزي. (انقلاب مثالي لأمة جرحت أخيراً في القلب وباتت مطلقة اليد، لأنها كفّرت عن موتها، باستخدام القوة وهي مرتاحة الضمير)، كما يقول في (جحيم السلطان، ص111). وهو يذكرني بما قاله البريطاني "جون لوكازيه" في) اعترافات إرهابي) وذلك في المصدر ذاته "ص91)" إن سورة الجنون التي تشهدها أميركا هي، في نظري، الأسوأ من بين كل ما شهدته في تاريخيا: أسوأ من المكارثية، وأسوأ من خليج الخنازير، ويحتمل أن تكون، على المدى البعيد، أشد وقعاً من كارثة حرب فيتنام)، عنف الكتابة هذا معاينة للعنف المعمول الحدث، فثمة التفاف

على الحدث، قراءة لتاريخه، استشفاف لمقدراته الرمزية، حالته المعنوية، حمولته الرهانية، جنونه الظاهري الذي لم يخف بعد المخاتلة والخطل المنبثين في الصميم، لسان حاله، وموقعيته الزمنية، وعلاقته بجملة المتغيرات الدولية، حيث كل دولة بكل ما تملك وتحكم محكومة بالمفعول الرجعي والأثر القيمي للحدث ولكن في السياق الموجه به وفيه، وكل ذلك يدفع بالمراقب الخارجي، الذي بات معنياً به بحكم كونه مأخوذاً بمفاعيله، كما هو شأن المثقف أكثر من غيره، ربما أكثر من السياسي نفسه، حين يعتبر كل حدث حدثه طالما يعرّف به خصوصاً وفي أمكنة مختلفة (المثقف الكوني) فلا حدث يمنعه من البقاء على مبعدة عنه، وهو يمسه في العمق، من هنا كان لمفردة (الجرح) بعد رمزي بدوره، عميق الغور يعم كينونة الإنسان، هو جرح يماثل حالة الوأد، إن جاز التعبير، لأنه وليد أو حصيلة الصدمة المباغتة، كما جرى تبيانها، ولكن من الآتي، وهنا تبدو مشاركة "دريدا" مؤثرة، فهو يقول(الصدمة تبقى صادمة ولا شفاء منها لأنها مقبلة من المستقبل. فالافتراضي يصدم، هو، أيضاً)، ـ انظر (ذهنية الارهاب)، ص82. ويبرز هذا الاهتمام أكثر في مكان آخر (إن ما سيظل مريعاً في 11 سبتمبر وما سيحيا "دون نهاية" في هذا الجرح هو أننا لا نعرف ما هو، ولا نستطيع وصفه ولا تحديد ولا حتى خلع اسم معين عليه. وهذا هو بالفعل ما أقول)، انظر (ما الذي حدث في حدث "11 سبتمبر"؟ (ص 66. هذا الجرح في

تجليه الفرويدي ـ النيتشوي جدير بحمل اسم الحدث في التصعيد به كارثياً، كونه يزيح الحجاب عما تم تغييبه طويلاً.كون القيم المعمول بها على صعيد التبادل والتواصل الاجتماعيين، وفي الإطار الكوني عانت خلخلة في التوزيع، والضربة، بغض النظر عما يمكن قوله أخلاقياً حيث أن ذلك يبقي الضربة وقد بانت نتائجها، غائرة كانت، أعني كاشفة عما في الأغوار النفسية (فالسلاح الذي يجرح يخلّف ندبة في اللاوعي تظل مفتوحة إلى الأبد. لكن ما يخيف في هذا السلاح هو أنه يأتينا من مستقبل مجهول تماماً لدرجة أنه يتعذر تصريفه والإشارة إليه. ص72).

يلتقي دريدا مع بودريار، وكل في موقعه من ناحية تفكيك الداء، لكن الشحنة الأدائية للكلمة في توضيح المشهد الحدثي تثير المتخيل أكثر، ليس من باب المقارنة بينهما، وإنما من جهة المنظور الذي يتمثله بودريار الأقرب إلى العدمية في أكثر تجلياتها سفوراً، ولأنه معتبر الحداثي البعدي بامتياز.

يستعاد هنا نيتشه حيث يكون هو تاريخياً في موقع آخر، يصنف ما بعد حداثياً، رغم أنه مات على عتبة القرن العشرين، لكنه قيمياً يعد الرمز الأكثر اختراقا للعقلانية السائدة، فهو يتكلم من خلال كاتبنا، هذا الذي ينظّر لما هو كارثي، ويقف في وسط اللعبة التي يتقاسم مفرداتها: الجاني والضحية. الأمر الذي يدفع بالذين يعتبرون الحقيقة هي ما يرونه، يؤمركونها أو يعكسونها، خيانة للحقيقة، ومن هنا كانت المادة

المعروضة مميزة بحدتها وصخب مناخها، استمراراً لنظرته في مجمل كتاباته.

13- كيف يمكن المضي مع بودريار بخصوص الإرهاب الذي يولّد الإرهاب، العنف الذي يمرر العنف بغية عنف آخر، الإرهاب العنفي، والعنف الإرهابي، إلى ما لانهاية له من الجهتين؟

ثمة رؤية فلسفية للموضوع تتلخص في عدم وجود منفذ وحيد إليه، وإنما تتم مقاربته من النواحي كافة، ولعل المداخل الأكثر بروزاً وخطورة هي المتعلقة بما هو خفي ضمناً،إلى ماوراء الخير والشر، وهذه العبارة الأخيرة عنوان كتاب لـــ" *نيتشه*"، حيث تتبدى الحقيقة متوسطة القيمتين، فماوراء الخير والشر ليس اللأخير واللأشر إنما هما بالمقابل ولكن في حالة صراع وتصارع، والفصل بينهما من موقع تضادي يلغي فاعلية الحقيقة في صنع مفهوم كل منهما، ويبقى الإرهاب العنفي أو العنف الإرهابي ممهورين بحالتي التجاذب هاتين. فحيثما تتم زحزحة وإزاحة الإرهاب يكون حضور العنف مفصحاً عنه، وحيثما يتم إقصاء الإرهاب يبقي العنف معمولاً بمبدأه وهو أنه معانق الداخل لا مفارقه، وكل ذلك يؤدي إلى الخلط ودس الإسفين المفاهيمي دون وجه حق أو حقيقة، وهذا يؤزم المشكلة ويعمّق الحدث سلبياً، والحديث عن عبثية الإرهاب أو العنف بالصيغة المقدمة يشير إلى حالة الإغلاق الطهرانية على الموضوع، فالعدو (هناك)، ويعني ذلك أن الذي

يصيغه كمفهوم، ويبلوره كحدث ليس الحدث بوصفه واقعي النشأ أليفاً نوعاً ما، وإنما كل ما يقصيه محور شر، مرفوعاً بالعنف والاستبداد والموت. كل ذلك

يفقر التاريخ ويجوّفه قيمياً لصالح جغرافيا عددية مشبعة بإحداثيات العنف، وهذا هو العبث الذي لا مخرج منه، كونه اختير المجال الرحب للإقامة في العالم والتحرك فيه، والحدث الذي جرى يؤكد ذلك.

إذ العدو الذي هو الآخر، وعلى النقيض التام مباشرة، يعكس المفاهيم القيمية أو يعكسها، فيكون العدو بالنسبة إليه هو الآخر وقد بات (هناك)، فهي إذاً أكثر من لعبة مواقع متبادلة ومتعاضلة، ولكن ذلك لا يعني (هنا) أن أس الأزمة كامن في المعتبر سيد اللعبة، وربما يدعي كل طرف أنه على حق كامل، بمعنى أنه على صواب، ليستحيل التقارب الاثنيني، ومضاعفات الحدث حتى الآن تشي بكارثية اللعب'، وأن كل طرف يقف حدياً، يكون طي أتون اللعبة، أي فارز اللعبة وفي الوقت نفسه وقوده.

14- المنبثق والمرفوض، هذا الذي لا يطاق في القوة العالمية الجديدة

Ce que est isupportable et inacceptable, c'est l'emergence toute nouvelle puissance mondiale

هل يترك بودريار خاتمة مقاله محكمة الإغلاق، أم ليس للخاتمة وجود في مقاله؟

لا تقليدية في مقاله حيث كل عبارة تستدعي مقاربة نقدية: بنية ومفهوماً ومنهجاً وبعداً قيمياً. إذ أن المدقق في النص ربما يلاحظ تجنياً على الولايات المتحدة، وغمزاً ولمزاً في السياق الإجمالي، وكأنه يكافىء الحدث الارهابي، ويشمت بالضحية، (وهذا ما يمكن ملاحظته في مقال "جاك جوليار:"بؤس النزعة المعادية لأمريكا، في كتاب (*ذهنية الإرهاب*) المصدر المذكور ص41 - 48 مثلاً) ولكنها القراءة المتسرعة والموقعية الضيقة الإطار، إنه من موقع المسؤولية (مسؤوليته كحامل لاسم يمنح حق الكلام في كل حق مهما كان موقعه وزمكانه، وإزاء الكلمة التي تستحيل كتابة وتاريخاً وشهادة على حقيقة حادثة ومثلت أو مثّل بها، ويغدو هو نفسه محل الاستنطاق أو الاستجواب من خلال رؤيته تلك) يبدو صاخباً لاهباً، لكنه كذلك انطلاقاً من فرادة الحدث وخطورة البت فيه بعجالة. حيث التشديد على أمريكا إلى درجة القسوة والتحامل (وهذا ما يمكن تلمّسه ظاهرياً، وظاهرياً! فقط)، يستند إلى جملة مفارقات لا يحاط بها إلا من منظور الفلسفة اللامواقعية المحددة، فهو يشدد على أمريكا من خلال مركز الثقل المعلومة به، ونتيجة تعددية الأسباب التي خوّلتها لتكون في مركز كوني معولمة ثقافتها

ومبادئها التي تعود إلى خصوصيتها الزمكانية وهي التي لا تعني الآخرين إلا من حيث تفعيلها أمريكياً وليس لتبادل المصالح تكافؤياً، فأن ينقسم العالم إلى عالمين، وهكذا ببساطة مرعبة، لا يمكن الربط بينهما بالطريقة تلك قطعاً: العالم الأمريكي، أو ممن يساير القطب الأمريكي، خصوصاً في امتداده

الأوروبي (الغربي)، دون نسيان الطابع المسيحاني المتمذهب (البروتستنتي)، والذين ينضوون تحت هذه الراية الغامضة الألوان المغرضة هدفاً، والعالم الآخر: الإسلامي، الموسوم بالتخلف وتوليد الإرهاب، والمشكل الخطر الأكبر على العالم أجمع حتى في محيطه، باستثناء الذين لا ينفكون يعتبرون هذا التقسيم لمصلحتهم، ليس مسايرة وإنما للتعبير عن مصالح معينة، وهكذا يتم تجيير الدين في مجموعه (أن يجعل الاسلام تجسيداً للشر، قد يعني تشريفه (وتشريف الذات في الوقت نفسه). ولكن ليس هذا هو المقصود: فعندما يقال إن الإسلام شر، فإنما المقصود أنه ليس على ما يرام، إنه مريض، وأنه عنيف بسبب مرضه، ولأنه يرى نفسه ضحية مذلولة ويدع حقده مختمراً في قرارة نفسه بدلاً أن يلتحق، مغتبطاً، بالنظام العالمي الجديد) ـ انظر (ذهنية الإرهاب)، ص114.

نحن هنا إزاء صراع جرى التعبير عنه والنظر إليه من منظور مختلف تماماً أمريكياً ،يطال بنية الثقافة، وبنية الحضارة في تجلياتها الاجتماعية والسياسية والتربوية والقيمية،

وبما يتجاوز المفهوم الضيق لـــ "صدام الحضارات"، كما يقول في المصدر نفسه، لكن في (جحيم السلطان، ص127) وبالحرف (إذاً المسألة ليست "صدام حضارات"، بل مجابهة، شبه انثروبولوجية، بين ثقافة شمولية غير متميزة وبين كل ما يحفظ، في مجال كان، بعضاً من الغيرية غير القابلة للاختزال)، وهذا ما يتوضح في الصفحة التالية (إن نشأة النظام العالمي هي نتاج غيرة ضارية: غيرة ثقافة مستوية، مشوشة الحد، غير النظم الفاقدة السحر، الفاقدة الكثافة، حيال ثقافات عالية الكثافة، غيرة المجتمعات الفاقدة المقدس حيال الثقافات التي تعلي من شأن المقدس وأشكال التضحية).

إنها للغة باهظة التكاليف في عالم لا يسمح بمرور الكلمات، مثلما لا يسمح بمرور البضائع دون دفع الرسوم الجمركية، أو الدخول في شراكة الكلمات حتى بعد تدوينها بصياغة ما، هو عالم الحقيقة المتعددة الأوجه، أو عالم الحقائق المتداخلة، والتي لا تثبت على وجه وحال، وربما كان في لغة بودريار حضور كثيف أو مكثف للصوت الأوبرالي في طابعه الفجائعي، ولكنه لا يخفي إطلاقاً الأرضية التي لا يقف عليها في مسارها المعتقدي (لأسمه حرفياً: الفرنسي الكاثوليكي في مواجهة الموقف المعتقدي الأمريكي البروتستانتي)، قد تكون معه إلى حد ما، قد نخالفه في توجهه من منطلق مختلف معتقدياً، وربما تاريخياً، وربما (أضف إلى ذلك) جغرافياً، بوصفه الفرنسي الذي لا يتكلم إلا بحسبان معين، وخصوصاً حين يقف على

جرف خطر، وهو يمارس إلغاء شبه قصدي، لهذه التي تكون (أمريكا)

وبنوع من السخرية والنميمة ضمناً، وحتى الاستعلاء الثقافي، فيكون الإرهاب علامة جلية من علاماته كذلك، ولعل هذا نابع من خوف على خطورة ما يجري وما يمكن أن يحدث لاحقاً، ولا يتمناه، ولا أعتقد أن أيّاً كان ومن موقع الحرص على سلامة الكون والإنسان يتمنى، وهذا بحث آخر، يبقي

العنف البودرياري رافعة قوية، وكأن العنف ليس بالمستطاع التخلص به، حتى بادعاء تجاوزه. ولكن يظل في الطرف الآخر (همنجواي وفولكنر وهيرمان ميلفل وبول كيندي ووالت ويتمان وهوراس ماكوي وهنتنغتون وكين كيسي.. الخ مشكلين هذه التي تعى مجتمعة أمريكا لرؤيتها عن قرب). فهذا ما ذكرته سابقاً، وبوسعي ذكره هنا ولاحقاً، لئلا نقع في فخ المعتقد الضيق بصورة كلية أو جزئية.

15- في صميم الأزمة الكوكبية a coeur de la crise planétaire! يعني موران (حسب ادراكي له) أن الأزمة راهنة، أو أن هناك أزمة حالية، مستعصية، تتحدى أيّاً كان، حيث الصفة هي في كوكبيتها، حيث المفهوم لايخلو من تشبيه بيولوجي، أي الكون يستحيل جسداً هنا، يتعرض لأزمة، أعني نوبة هي ذاتها أزمة ولكن بالنسبة للقلب، ومن علاماتها الانقباض مقابل crispation كون الانقباض يشي بخلل حاد في التوازن الحيوي للجسد (للكون بالتناظر)، هل حقاً أنها

كذلك؟ لازمان ولا مكان دون أزمة، ثمة حضور للأزمة في كل زمان وزمان، بوصفها لازمة إنسانية، يمكن الحديث هنا عن أزمات وليس عن أزمة واحدة، أما لحظة الحديث عن الأزمة كمفهوم عام، فالذي ينبغي قوله هو ضرورة تعليق المفهوم نفسه (ليس على طريق هوسرل)، ليس لأنه ملتبس، وإنما لأنه مضلل بالطريقة تلك، إذ كل نقاشاتنا وأحاديثنا اليومية، وكتاباتنا المختلفة الأهداف والمسارات، حتى العادية منها، لا تخلو من طابع أزمة، وهذا القول، كما أعلم، لا ينطلي على مفكر متبحر في العلوم والفلسفة، وخصوصاً في السوسيولوجيا الثقافية، ولكنه يعرّضه للتساؤل حين يمنح الأزمة طابعاً كوكبياً وكأنها وليدة اللحظة، أعني يضفي عليها صفة الفرادة. وأعتقد أن المتتبع لكتاباته يلاحظ أن البعد الأزماتي يشكل الأرضية الصلبة لمجمل منطلقاته الفكرية وتصوراته وهواجسه.

بوسعي ذكر أكثر من شاهد على هذا المبحث (إن كلماتنا السائدة مريضة: لقد فسدت وتوسوست، إنها تعود، بمناسبة أو غير مناسبة، تدعي معرفة كل شيء وتفسير كل شيء. لقد فقدت فضيلتها الإجرائية واكتسبت فضيلة سحرية، فضيلة إثارة الحماسة أو التعزيم)، وهذا ما جاء في كتابه (***مقدمات للخروج من القرن العشرين***) الترجمة العربية، وزارة الثقافة السورية، 1993، ص66.

يلعب موران على المعنى ويناوره بغية إحداث أثر أكثر فاعلية، فهو لا يتوانى عن استخدام المفردات التي تعيد المرء إلى الداخل، لاستقراء الأزمة، التي هي أزمات كما يبدو، وليست وليدة الراهن، في ربطها بحدث 11 أيلول بدورها، فالقرن العشرون في مجمله كان قرن أزمات، كل أزمة تقود إلى أخرى، ولكن دون أن يعني هذا أن القرن ذاك كان أزماتياً وكفى، لقد كان هناك رؤى ومنافذ ومحاولات، وإن لم تكن في مستوى المأمول، والقرون التي سبقته كانت لها أزماتها المناسبة أو الخاصة بها، عدا المتراكم منها، والقرن الذي حللنا فيه حديثاً لازال ملحقاً بالذي قبله والذي لا ينفصل عنه حسابياً بقدر ما ينصب فيه مع القرون الأخرى نهرياً، فالحدث تراكمي، والأزمة بهذا المعنى لا تتحدد قياسياً، بل ربما من حيث المقارنة مع غيرها، كما في حال المرض والفساد والتسوس والسحر، والأكثر التفاتة للنظر هو (التعزيم) ذو الطابع الماورائي حيث استجداء القوى الخارجية بالصوت، لأن الأمل لم يعد له من معنى يمكن الرهان عليه، وهذا ما يؤكده في مكان آخر من الكتاب ذاته (نحن في الدرجة الزمنية الصفر من الميثولوجيات الكبرى، الحماسات الكبرى، الآمال الكبرى. نحن في هذه السنوات الصفر التي يتردد، فيها، القدر في اتخاذ شكل، ونحن نقترب من صفر السنة 2000 المثلث الذي يبهرنا بسحره العشري المبهم، فتارة تعلن ثلاثية الصفر عن لا شيء ثلاث مرات، وتارة تبدو هذه الأرقام المستديرة واعدة بعالم

جديد تماماً. إن الصفر هو الرقم أبو الهول: إنه الحالة الحيادية، توازن الأضداد أو البداية الحقيقية، من جديد، من نقطة الصفر ـ أي الاختزال إلى الصفر ـ الفناء. ص85)، ويقول في مكن آخر ص318 (كل شيء، في هذا العالم في أزمة. وقولنا أزمة يعني، كما رأينا، تقدم ضروب عدم يقين. لقد تقدمت ضروب عدم اليقين في كل مكان وفي كل شيء. وهذا يعني أنه إذا استطاع الأنبياء أن يتنبؤوا والعرافون أن يتبصروا، فإن المشخصين لم يعودوا يستطيعون أن يروا جيداً والمتكهنين لم يعودوا يستطيعون أن يتكهنوا. فالحاضر في ضياع، والكوكب يعيش، يترنح، يدور، يغرق، يفرقع من يوم إلى يوم. وكل ذلك يعاش على مدى قصير).

ما الذي يميزه هنا عن الجو الحدثي الذي تناوله بودريار؟ ماهذا الصفر المقلق والملهم للاثنين؟ هل ثمة تجاوب مع "رولان بارت" في كتابه (*درجة الصفر للكتابة*)؟ أليس الشاغل الأكبر للمدوّن هنا ذا صياغة كارثية؟ إذ يبدو السوسيولوجي مختزن القلق متابساً رعباً وهو يحيل مجتمعاً بأكمله إلى الحالة الصفرية، حيث الرؤية المفاهيمية للأمور تفصح عن رعب المعاش وفق ما هو معمول به قيمياً.

أزيد على ذلك بالقول بأن كتابه الآخر (*روح الزمان*) الصادر قبل أكثر من أربعة عقود زمنية، في جزئه الأول (العصاب) يفصح عن بؤس اللغة المتداولة ووهم المتخيل في النصوص المقروءة، ولعل الذي دفع به إلى الحد الأقصى من

مجانبة المجتمع السادر في غيّه، إنَ جاز التعبير، هو تأزمه الشمولي، وخصوصاً (حدث 68)، حيث تناوله له لا يختلف عن تناول بودريار للحدث المذكور سابقاً، رغم اختلاف المكان وخاصيته، ولكن المشدّد عليه هنا هو الحدث الذي عرّف به متفرداً بدوره وقتذاك (طرد الحدث بقدر ما جرت مماهاته بالفرادة، بالعشوائية والطارىء، باللارجعة، بالمعاش (سنتساءل في كل مكان آخر، عن معنى كلمة "حدث" هذه نفسه). لقد طرد لا من العلوم الفيزيائية ـ الكيميائية فحسب، بل، أيضاً، من السوسيولوجيا التي تنزع إلى ترتيب ذاتها حول قوانين ونماذج وبين منظومات...)، انظر الترجمة العربية، وزارة الثقافة السورية، 1995، ج1، النخر، ص255.

كيف يمكن الحديث عن الأزمة بعد الذي تقدمنا به؟ هل حاولنا تقويل سوسيولوجينا موران؟

من يكمل الآخر، أو يستكمل به في تصوره للحدث؟ لامراء في أن الاثنين يعانيان من حالة الجنوح نحو حافة الانهيار ولكن بالمعنى الذي يتيح لهما استشراف ما يمكن أن يأتي، كل منهما يشتغل على مفاهيم خاصة به، دون مواجهة الآخر، أو مجاراته، بقدر ما أن الحقيقة الصاخبة، القياماتية خوفاً من فقدان الحياة إلى الأبد، تتوزع بينهما، ثمة عوالم تتقصف لأنها لم تعد قادرة على رصد ما يمكن أن يكون جديراً بالحياة ، ثمة موت مفاهيم بوصفها كائنات تفقر، تهزل، تتشوه، تتأطر، تحتجب تقية أو قسراً، تتبدى مالا تكونه في العمق: شبحية أو

مبلبلة معان، مضللة، مخاتلة..الخ، لذلك كان العمل مفاهيمياً في صلب مناجاة المغيّب أو الموعود إيجاباً، كما هو الشعر المطارد لأنه يبدع فيلقى مقاومة،هكذا الباحث المفكر في اشتغاله بمفاهيم محظورة أو مرهوبة الجانب مجتمعياً، والذي أثرنا (ولا زلنا في البداية مع موران) هو هذا الإقدام على التفكير مختلفاً، ضماناً لمستقبل أكثر خصوبة بالمعاني، وهنا يكون الحدث البودرياري في تاريخه وموقعه حدث أزمة كوكبية ومن نقطة واحدة انبثق فيها، مع اختلال حاد في موازين القوى، فتكون الأزمة صانعة الحدث ولاحقة عليه، أما الحدث الموراني فهو حدث أزمة كونية ولكن غض النظر عن الموقع التي تحتشد فيها القيم المسواقة والاستعراضية وهي تستنزف سواها، وتنتج حقائق بموازاتها، مضيّقة على العالم في مجموعه، ومهددة الإنسان كمعنىً وكمفهوم .ولعل كاتبنا المشدد على الكلمات العدمية الطابع هو أكثر إلحاحاً من ذوي النزعة التفاؤلية على حياة آمنة .

16- من الجدير بالذكر أن كاتبنا منذ عقود طويلة كان يعتبر الاتحاد السوفياتي (سابقاً) والولايات المتحدة الأمريكية القوتين القادرتين على بلبلة العالم وتهديمه أو العمل على تطويره إذ تجاوز سباق التسلح الجنوني وعقدة العسكرة وكيفية المركزة عالمياً، وتزكية العنف في كل مكان، أما وأن الاتحاد السوفياتي قد انهار، فإن الممكن تذكره هو ما أفصح عنه بخصوص أمريكا وهو) والتعارضات والتناقضات تنتشر، في

الولايات المتحدة، في ضروب الفوضى الكبيرة التي هزت الدولة وزعزعتها أحياناً، بل وشلتها مؤقتاً. إلا أن حيوية المجتمع الأمريكي تتجلى من خلال ضروب الفوضى هذه.) ـ انظر (مقدمات، ص308).

هذه الإحالة المرجعية بقصد استنارة المكان والتقدم إلى الأمام، فالرؤية الجهوية المختلفة تعتبر الدعامة الأكثر قدرة على إنتاج وتنمية المعاني الملهمة والمشجعة على التفكير وتحريض الآخر للتفكير معه.

لا تحامل هنا، فالسوسيولوجي مخلص لمفاهيمه بالطريقة التي يعتقدها طبعاً، يختبرها في متخيله، بالمقارنات، والاستنطاقات، وتغيير المواقع، والعودة إليها باستمرار، ويعاين مداها وقدرتها على البقاء والتوالد، ولهذا يكون له عالمه المميز بوصفه الآخر المتقدم والذي لا تتم رؤيته حقيقةً كعالم وكمتبصر إلا بعد حين وأكثر، وهنا تكمن أصالة الكاتب التي تقلقه بقدر ما تؤرقه من خلال حجم الضغط عليه من العامة والذين يشتغلون معه أوفي مجاله وينكدون عليه عيشه المفاهيمي أو يضايقونه بالكتابة أو بالغمر واللمز من قناته، والضغط من جهة المفاهيم ذاتها حيث تتحداه وتطالبه بمداراتها وتمكينها من التحقق والسؤال عنها، اعتماداً على ما أسميه هنا بالمسؤولية المفاهيمية، حتى يأتي الوقت الذي تثبت فيه جدته الفعلية، كون المفاهيم لاتبقى كماهي بقدر ما تتعرض لتحولات تبعاً لمتغيرات واقعة وذهنية.

17- نزعة الشك هي في أن عالما يتحقق فيه الأمن والاستقرار على مستوى كوني تسم جل ما يكتبه موران، هذه النزعة لا تجعله كلبياً، حارس فضيلة، إنما الحريص على العالم دون نسيان عمق الروابط الكامنة في الداخل، فالنفس البشرية في صيغتها الأكثر مثالية، تشكل الحنين الفلسفي إلى الماضي ارتكازاً إلى روح صافية تنزع عن الجسد الكوكبي أدران التقانه ووهم القوة المتفردة،هي إرادة تمثل الحقيقة المتعددة المصادر، فهو رغم عمله المكاني، لا يعدم القيمة الأدائية للنبرة الرسولية في الكتابة (ما العمل؟ نحن نعلم أن عدم اليقين والخوف من الخطر وانبثاق التناقضات يشلنا وينذرنا للعجز. ولكننا نعلم أيضاً، أنه لا يمكن تصور أي فعل دون مجازفة. إن عدم اليقين والتناقض يحضاننا، أيضاً، على المراهنة. والمراهنة تصرف، والتصرف مراهنة ــ مقدمات، ص291).

18- من الملاحظ جيداً أن موران يتحرك كثيراً في ظل تأثره بأحداث 1968، هي لم تكن أحداث الشباب، كان هناك أكثر من أزمة شملت مرافق الحياة في المجتمع، وغطت مجتمعات مختلفة أوروبية وغيرها، وبدت له الأزمة في سياق الثقافة الجماهيرية، إنها الأزمة المعضلة، التي تهدد مجتمعاً بكامله، وهي التي دفعت به إلى التركيز عليها بوصفها أزمة ليست عابرة، هو وغيره أمثال بودريار وميشيل فوكو وجيل دولوز وفيلكس غواتاري والتوسيرودريدا...الخ (للاستنارة

حول ذلك، أحيل القارىء المهتم إلى كتاب الباحث المغربي "محمد الشيخ": ***المثقف والسلطة***: دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة، بيروت)، ومصطلح الثقافة الجماهيرية تمس كل القيم التي تحرك المجتمع وتتنوع فيه وتتغير من خلاله كذلك. إن الأغنية والرقص والصندويتش السريع التجهيز والمطاعم المتحركة والجنس المنتشر في كل مكان وعروض الأزياء ومعارض السيارات والرياضة والتمثيل السينمائي والتعبير عن الجسد بطرق شتى..الخ كل هذا يدخل في حيّز الثقافة الجماهيرية وكيفية مراقبتها، فهو يقول إثر الأحداث المذكورة (والأزمة تتجلى، بصورة أعمق، في قلب النماذج المندمجة والدامجة نفسه: إعلاء القيم الشبابية ، إعلاء القيم الأنثوية، إعلاء شأن التشبيق ومبدأ اللذة، وإعلاء شأن الميتولوجيا المشخصة لأنواع الترويج أو الإجازات والرحلات. روح الزمان، ج2 ص216).

وما جرى في 11 سبتمبر ألا يمكن اعتباره مرتبطاً بقيم على مستوى عالمي؟ عبر تفعيل الأزمة عالمياً، ومن خلال التشديد على القوة الشبابية التي تجنح إلى المكان المعبر عنها في عالم ضاغط عليها بسبب وجود قيم عسكرة وتحجيم قيم معينة استئثارية تقليدية راشحة للعنف، ولعل مشاهد العنف وعلى مستوى عالمي، وكيفية القيام بأعمال انتحارية وضلوع الشباب في حبك مؤامرات أو نسج تحالفات خاصة وعقد صفقات مختلفة وتنظيم علاقات تتميز بالحدية والحسمية (إما

تحقيق الحياة المطلوبة أو الموت)، وتعريض المجتمع بكامله لخطر الموت والبلبلة، أعني إرجاع كل ما كان إلى بدائية محض كنوع من رد الفعل على بربرية التقانة التي تحيل الموهبة إلى تطويع آلي وبتوجيه من أنظمتها، وكل ذلك يضاعف الأزمة ويبقيها معلقة، ويستدعي النظر إلى هذا الأزمة بجهود عالمية مشتركة ومكثفة.

19- للتوضيح، أشير إلى أن موران اهتم كثيراً بقضايا الشباب وملابساتها.. وعلى سبيل المثال يمكن التوقف عند مجموعة من العناوين الداخلية في كتابه (*روح الزمان*)، الجزء الثاني، المسمى بـ (النخر) وهو تعبير له دلالته النفسية والقيمية.. فهو في الفصل الثاني يكتب عن (الأزمة الشبابية) ومن ثم تتسلسل العناوين هكذا:

من الثقافة الفرعية المراهقة إلى الثورة الثقافية

1- مشكلة المراهقة

من الثقافة الفرعية إلى الثقافة المضادة

من الاتجاهات إلى الاتجاهات المضادة..

2- الثقافة المراهقة والثورة الطلابية

الثقافة الشبابية المراهقة

عمومية الثقافة المراهقة ـ الشبابية

تفسير مسألة الشبيبة

وفي الفصل التالي (الأزمة الأنثوية) نقرأ:

من الأنثوية الجديدة إلى الحركة النسائية الجديدة

اختزال سوسيولوجي للمرأة أم سوسيولوجيا تأنيث؟

المسألة البيولوجية ـ الانتروبولوجية للمرأة

الخادمة والسيدة

طبقة بيولوجية اجتماعية وليدة وغير مكتملة

تنافذ الحركة النسائية والأنثوية

حواء الجذور وحواء المستقبل ...الخ

هذه العناوين ليست استعراضية، إنها مداميك فاعلة في قلب كل حركة ثقافية تعنى بشؤونها وشجونها، إذ يلاحظ الطابع الملموسي والحيوي والدقيق في تثبيت العناوين، والتي تمكننا من مواجهة ما تونه الأزمة دون النظر في البعد الجنحي مباشرة، طالما الهدف هو كيفية تجاوزها وتوسيع رقعة المكن مجتمعياً.

20- كيف يمكن التوقف عند مفهوم الإرهاب في ظل نظام العولمة مجدداً؟ ما يقال هنا هو أن الإرهاب لا يتحدد إلا بتحديد القاعدة الداعمة له، فهو لاينعزل عن جملة مقوّمات تعيش في العمق الاجتماعي والسياسي، إنه ماكان حصيلة وليس وسيلة فعل ما، وربما يكون وسيلة ولكن ـ هنا ـ لفعل معقود عليه أمل معين، حيث الإرهاب كمفهوم يرتبط بثقافة وهذه بجماعة أو سلطة أو فئة على أساس ما تفترضه أو تتوقعه من حقائق تمارس العنف الذي لا يكون إلا من وجهة نظر المعارض، وفي الوقت نفسه يستدعي الإرهاب المجال الحيوي للنيل منه عبر من يمثله أو يتهم به، ووضعه مختلف

هنا، ولأول مرة تاريخياً، كونه الموجود والمفقود كصورة متجسدة، أو كرأي مشخص في كائن اجتماعي أو جماعة معينة يمكن مواجهتها وربما وضع حد لها، فثمة حرب على الإرهاب في كل مكان وفي اللامكان، حيث لا حدود محدد له لاحقا أو بناء على مواقف وتصورات تجيش وعياً ذا بعد عالمي وبأشكال متعارضة: الذين اعتبروا ممثلين له والذين يعتبرون ضحايا له ومعهم الذين يقتصون من المعتبرين جناة، هكذا يطوف الإرهاب في كل مكان وفي أمكنة محددة تكون بؤرته بغية إضفاء مصداقية على الفعل المناهض له.

في نظام العولمة الذي نحن بصدده، يحق لأي كان أن يتساءل عن هذه العبثية المعقلنة والطفرة الحاصلة في مفاهيم تتعلق بموضوعة العنف عالمياً والإرهاب الذي بات تعويذة ونوعاً من التنجيم السياسي، ومجالاً رحباً لذوي المواهب في أن ينسجوا صوراً ويصيغوا نصوصاً وأفكاراً عن هذا الكائن الغائب الحاضر، الشبح والواقعي، الاستشباحي والاستيهامي والموقعن معاً، وأعني به الإرهاب. وهذا ما يذهب إليه موران، من منظور جدولة الخطأ والصواب، هو وضع حد للشطط المفاهيمي، دون إخفاء سخطه على ما يجري فكيف به الآن، حيث يقول (وأريد أن أشرك القارىء بقناعتي بأننا مازلنا في ليل عميق فيما يتعلق بمعرفة العلاقات بين دماغنا / والأفكار والعالم الخارجي إننا مازلنا في ما قبل تاريخ الذهن.

وهذا الأخير ما يكاد أن يبدأ في تصور معرفة ذاته. ــ مقدمات، ص179).

ثمة أكثر من شبح: اقتصادي، اجتماعي، سياسي، تربوي، تاريخي.. يطوف في ذهن موران، ومجموعة الأشباح هذه تتفاعل مع بعضها بعضاً، وتشكل الحصيلة الكلية لمآلات المجتمع وطبيعة التخفيضات المتتابعة في القيم المجتمعية، من جهة تقليصها، ومن جهة تمحيصها بما يجعلها متفاوتة إلى درجة حفز كل المكبوتات المتراكمة تاريخياً وشحنها بالعنف وتعريض الإنسان كقيمة رئيسة للعدم.

وهو في كل صياغاته يوسّع حدود المعنى، لرؤية الأزمة المتوارية وراء جماليات استعراضية واستهلاكية، ويقلب خط سير القيم والمنوط بها مما هو مرغوب فيه إنسانياً، وعلى مستوى كوني، إذ لاتبدو الحضارة في تجلياتها العظمى سوى التدرج الأكثر جلاء في سلم همجية تستفحل هنا وهناك.

أورد هنا ما قاله "نيتشه" قبل أكثر من قرن (لقد اكتسبت البشرية في مراحل تطورها السابقة عدداً لا يحصى من الاستعدادات، إلا أنها لا تزال ضعيفة وجنينية لدرجة أن ما من أحد يستطيع أن يدرك أنها قد اكتسبت، والتي تنبجس فجأة إلى النور بعد طويل من اكتسابها، ربما بعد عدة قرون: خلال ذلك تكون قد نضجت وصلبت .

– انظر كتابه (*العلم الجذل*)، ترجمة سعاد حرب، دار المنتخب العربي ، بيروت، 2001، ص40.

21- يظل موران حارساً على مفاهيمه التي يحفر فيها ويزيدها عمقاً وإضاءة كلما تقدمت به المعرفة زمنياً، ولعل المبدأ الرئيس الذي يبدو مفعّلاً في تفكيره وتدبيره المفاهيميين، هو حقيقة ما يرومه على الصعيدين: المجتمعي والإنساني، فهو حارس مفاهيمي، وربما أمكن القول: هو حيوان مفاهيمي على طريقته من جهة التشديد على فاعلية الكلمة المستقاة عنده في الحقل المجتمعي، والرؤية المتبدية عنده تعرّف بالعالم المخفّف عنفاً عبر التخلي عن مجموعة المركبات الضاغطة والمولّفة والمخلخلة لنظام كوني عالمي. ولا يتم ذلك إلا لحظة النظر في الإحداثيات المولّدة للعنف في أماكن مختلفة في العالم (في فلسطين وغيرها)، وهذا يتطلب المزيد من المرونة والتحرر من كبرياء الهوى والا ستعلاء بكل تفعيلاته الأثنية والسلطوية، والتلاقي في النقطة التي يبرز فيها الإنسان حريصاً على وجوده كقيمة مثلى.

ولعل الأزمة الكوكبية التي يركز عليها ليست وليدة الآن، إنما نشأت منذ عقود زمنية في صورتها الأكثر مأسوية، والمتمعن في صياغة تعابيره يلاحظ مرونة في إدارة الكلم، وسعياً إلى اكتساب ود كل من ينطلق من محورة الاستبداد منطلقاً في إقامة العلاقات مع الآخرين. إنه (وربما ما صاغه سابقاً بحدية ملحوظة، أضناه، وها هو يناشد القيمين على الثقافة، الجماهيرية خصوصاً، بضرورة اليقظة قبل فوات الأوان كونياً) يدقق في الثقافة التي تفعّل الأوهام بدلاً من

التخلص من فتنتها (إن الثقافة متصدعة. فهناك، من جهة " انسانيات" فقيرة لا تعرف الاتصال بمصادر التحقق (العلوم) ولا بالمصادر اليومية للمعرفة) وسائل الاعلام (والتي تتأمل في فراغ. وهناك، من جهة أخرى، ثقافة علمية غير قادرة، من حيث المبدأ المنهج والبنية، على تصور المسائل الإجمالية وتأمل ذاتها ــ مقدمات، ص234).

22- حول ذلك يمكن إيراد ما قاله موران في (مقدمات، ص353)، مفصحاً عن المخرج من الأزمة (إلى الأمام من أجل الألف الثالث). نحن في المتاهة ولن نخرج من التطواف. والتخلي عن الفردوس بدأ فقط. وتاريخ الإنسانية بدأ فقط. وقبول التراجيديا الإنسانية (وتراجيديا الكون دون شك) هو الشرط الضروري لكل سياسة انتروبولوجية (.، وهو في الصفحة التالية يراهن على الحب بوصفه الوصفة الكونية دواء لداء هو ذاته يشخصه من خلال ما يسميه بــ (العصاب)، و(النخر)، وهذان الداءان لهما مرجعية نفسعقلية، أو عقلنفسية، ويشيران إلى الهوة الواسعة التي تستوطن الإنسان اليوم، تلك وكأن الحب في إهابه المسيحاني (أهي أخلاقية المسيح الممثلنة؟) الملاذ الوحيد الممكن لتجاوز التصحر القيمي. وهو بذلك يلتقي مع بودريار، خصوصاً وأنهما يعلماننا بالبعد التراجيدي لما هو إنساني، والذي من شأنه معاودة النظر في الأصل الإنساني على مستوى المعمورة، والتراجيدي يعتبر المسرى المتصاعد لمقاربة ما هو سام قيمياً في الانسان،

ولتحويل مجرى الحدث، وهي دعوى لا تخلو البتة من نزعة خيالية التبلور، ولكنها لهذا السبب تحث الإنسان على معانقة المغيّب في ذاته، لجعل حدث التجاوز مشفوعا بالمشاركة الجمعية في حمل الإرث العنفي كونياً أو عالمياً، هو الحدث الأهم بامتياز.

23- ادغار موران وهو ينهي مقاله، يتهيأ لبداية مترتبة على النهاية المعلنة، ولكنه يختزن في ذهنه أنماطاً من الحياة، من رتابتها، وفتور معناها، وبؤس المعاش فيها، واصطراع تياراتها ومذاهبها المختلفة في الأدب والثقافة، وأصوات الذين تمثلهم بصيغ شتى في مادته، أصوات تتداخل وتتفاعل في النهاية رغم تفاوتها قيمياً وتعارضها،ثمة حضور للمثقف الكوني الذي يشدد على أهميته، وهو عنيف في هذا المنحى من جهة الدور المحوري والبؤري للمثقف، معه هنا يحضر بيير بورديو وميشيل فوكو ودريدا، لكن غرامشي لا يتنحى جانباً، وحضور المفكر الذي يعدم كل مفهوم في وسطه الثقافي والمجتمعي طالما تم تفريغه من مفعوله الفعلي، مفكر من نوع بودريار، وعلى مثاله، ولكن باكونين غير غائب هنا، ولا فالتربنيامين الذي طالما ربط الحضارة بالبربرية حيث الذرائعية تضحي بانسانية كاملة، وحضور للعالم النفسي والاجتماعي، وحالات اللاشعور من نوع فرويد وماركيوز وهابرماز وجاك لاكان وجيل دولوز، هم جميعاً حاضرون فيه وهو يتحدث بصوته، الذي أريد إنهاء هذا التعليق بآخر مقطع

له من كتابه (روح الزمان، النخر، ص434)، حيث يقول (إن مصير البشرية يتأرجح بين امكانيتين محتملتين وغير محتملتين. الأولى، ويمكن أن تمضي حتى شبه الإبادة الذرية، هي امكانية النكوص المعمم . واختلال النظام، في النكوص، لا يعني الحرية والفرصة، بل العدوان والضراوة والخوف، ولا يعني النظام الحماية، بل القمع والتقديسية. وأخيراً فإن النظام واختلاله يعنيان معاً، السجن، المعسكر، التعذيب، الموت. والإمكانية القصوى الثانية هي تقدم حاسم: تكوين مجتمع يتمفصل على مسافة واقعة بين العلاقة البئية والاتحاد الدولي: إن ثورة بهذا الحجم (تتجاوز كل ما يفهم من هذه الكلمة)، على اعتبار أن الأمر سيدور حول ولادة جديدة للبشرية غير محتملة، لسوء الحظ في هذا القرن).

كل شيء يبدو كما لو أن ثورة كوبرنيكية من نوع مختلف، وعلى مستوى متمايز هذه المرة، قد فاجأت إنسان اليوم، كما لو أن العالم اليوم يشكل النقيض الكلي المحض لما كان حتى الحافة الأخيرة للقرن المنصرم، كما لو أن الأنظمة والدساتير والسساتيم المعرفية قد زحزحت عن مواقعها وتم تشفيرها بصورة مفاجئة، كما لو أن (أن) هذه باتت عفريتاً كونياً فجّر قمقمه الكوكبي، وفتح صندوق باندور المرعب في كل الجهات، كما لو أن الذي حدث في التاريخ الذي نشهده في عنفه الكوني، قد جاء من خارج التاريخ. وكأن التاريخ الذي شهدناه حتى سنوات قريبة لم يكن التاريخ المدوّن حقيقةً، بل ربما هامشه أو ما دونه.

تصميم الغلاف : ناظم حمدان



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ اللاذقية ـ ص . ب 1018 هاتف 422339